دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الدلالة النفسية للالوان في تشبيهات ابن المعتز في الخمر والغزل : تحليل ونقد
المصدر:	مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط
الناشر:	جامعة الأزهر - كلية اللغة العربية بأسيوط
المؤلف الرئيسي:	أحمد، أبو زيد محمد علي
المجلد/العدد:	ع 30, ج 1
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2011
الصفحات:	176 - 276
رقم MD:	336226
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	النقد الادبي، الشعر العربي، الشعراء العرب، الشعر الغزلي، الالوان في الشعر ، نقد الشعر ، الدواوين و القصائد، الدلالات النفسية، ابن المعتز ، عبد الله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل ، ت 296 هـ ، اللغة العربية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/336226

© 2019 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

كلية اللغة العربية بأسيوط

المجلة العلمية

الدلالة النفسية للألوان في تشبيهات ابن المعتز في الخمر والغزل

تحليل ونقد

إعداد

أ. د/ أبو زيد محمد علي أحمد

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

في كلية اللغة العربية بأسيوط

(العدد الثلاثون– الجزء الأول– يوليو ٢٠١١م)

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم وبعد.

فإن استعمال الألوان في الأساليب، وجعلها عنصرا في بناء الصورة، وأداة تأثير ووسيلة إبهار لها تأثير كبير على المخاطب، فالألوان تلون المشهد بالفرح والسرور، كما تلونه بالحزن والكآبة، وقد أكثر ابن المعتز من استعمالها في رسم المشهد، وإبراز الصورة، وكذلك التشبيه له تأثير نفسي على المخاطب حيث ينقله من الخفاء إلى الوضوح، ومن المعقول إلى المحسوس، وهو من عناصر البناء التركيبي للصورة، وابن المعتز من المشهود لهم بالتفوق في تشبيهاته، وهو القائل: "إذا قلت: كأن ولم آت بالتشبيه بعدها فض الله فمي" فإذا اجتمع اللون والتشبيه في الصورة كانا لهما كبير الأثر في الإبانة عن الصورة، والكشف عن المشهد وإخراجه في أبهى حلة، وأحسن رواء، ومن ثم كان الحديث عن الدلالات النفسية للألوان في تشبيهات ابن المعتز في الخمر والغزل. والله من وراء القصد، وهو حسبي ونعم الوكيل.

تمهيد

شاعت وذاعت الألوان في شعر ابن المعتز بعامة، وفي الخمر والغزل بخاصة، إذ كثيرا ما يستعمل اللون في شعره ليرسم مشهدا، ويلونه بألوانه الملائمة للموقف المتناغمة معه.

والألوان تحدث تأثيرا في النفس بالفرح والسرور والحزن والكآبة. لأن: "اللون كالموسيقى يؤثر في المجموع العصبي تأثيرا عظيما، وهذا التأثير يظهر جليا في معالجة الصدمات العصبية. . . ويظهر أن اللون يحدث تأثيرا في العقل ثم ينشأ عنه رد فعل في المجموع العصبي على سبيل أشبه بالاستهواء والإيحاء[١].

واللون الجمالي ثبت أنه يولد التهدئة المرجوة، وأصبح معروفا على سبيل المثال لدى مهندسي الديكور. تجنب الألوان الدافئة كالأصفر والأحمر في مكتب الإدارة حيث تجرى المناقشات لحل المشاكل المختلفة. . . كما أنه لا يستحسن استعمال الألوان الباردة جدا، أي: التي تدعو إلى الرتابة والجمود كاللون الرمادي الذي يكسو مكانا بأكمله[٢].

كما ثبت علميا أن اللون يؤثر تأثيرا إيجابيا في إحساسنا بالوزن والحجم فعلى سبيل المثال الصناديق ذات المقاييس المتشابهة، والأوزان المتماثلة. تبدو أقل وزنا للعمال الذين يحملونها عندما تكون ملونة باللون الفاتح كالأصفر، إذ تظهر الألوان الفاتحة أخف وأقل أهمية في حين تظهر الألوان القاتمة أكثر ثقلا وكثافة، ويستطيع اللون توليد الإحساس بالحجم الكبير أو الحجم الصغير، فالمساحة الصغيرة ذات اللون الفاتح كالأصفر- مثلا- تضئ الأرضية القاتمة، فتبدو وكأنها تتزايد حجما، ومن مظاهر تطبيق هذه

(١) الرسم بالألوان في القرآن. د/ أحمد رأفت ص ١٥٠، دار الجيل- بيروت.

(٢) المرجع السابق ص ١٥١.

الحقيبة في حياتنا، نجد أن مصممي الأزياء- مثلا- يلجأون إلى الألوان القاتمة بالنسبة لأصحاب الأجساد البدينة، والألوان الفاتحة وخاصة الأصفر، بالنسبة لأصحاب الأجساد النحيفة[٣].

وفي قوله تعالى: **(قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ)**[٤] ما يدل على أن للون تأثيرا كبيرا في النفس حيث أثبت- سبحانه- أن لون الصفرة تسر الناظرين، وينقل القرطبي عن ابن عباس: الصفرة تسر النفس، وحض على لباس النعال الصفر. . وقال علي بن أبي طالب- رضي الله عنه-: من لبس نعلي جلد أصفر قل همه، لأن الله تعالى يقول: **(صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ)**. . . ونهى ابن الزبير ومحمد بن أبي كثير عن لباس النعال السود لأنها تهم[٥].

والأثر الذي يحدثه اللون لا يقل أثرا عما يحدثه الظلم فكما أن تأثير النظم يستولي على العقول والأذهان، ويستحوذ على القلب والوجدان فكذلك اللون والنسج والوشي يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني[٦].

عندما فرق بين الحروف المنظومة والكلم المنظومة، ". . . . وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه

---

(٣) المرجع السابق ص ١٥١.

(٤) سورة البقرة آية ٦٩.

(٥) تفسير القرطبي ٤٧٦/١، ت: إبراهيم محمد الجمل، دار القلم للتراث.

(٦) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ص ٤٩، تعليق محمد محمود شاكر. ط ثانية سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، مطبعة المدني- القاهرة.

حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو "النظم" الذي معناه: ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق ولذلك كان عندهم نظيرا للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضي كونه هناك وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح".

وكثيرا ما يشبه الإمام عبد القاهر مؤلف الكلام بمن يأخذ الأصباغ المختلفة فيتوخى فيها ترتيبا يحدث عنه ضروب من النقش والوشي فيقول(٧): "والنظم والترتيب في الكلام. . . عمل يعمله مؤلف الكلام في معاني الكلم لا في ألفاظها وهو بما يصنع في سبيل من يأخذ الأصباغ المختلفة فيتوخى فيها ترتيبا يحدث عنه ضروب من النقش والوشي فهو يريد أن يقول: إن الذي ينشئ رسالة أو يبدع قصيدة إنما هو مثل الرسام أمسك ريشته، وأحضر أصباغ ألوانه وأخذ يمزج الألوان المختلفة يقلل من هذا ويزيد من هذا حتى يخرج اللون المناسب الذي يحكي فكرته وينطق بما يرومه ويقصده فالإبداع في الأمرين واحد.

وإذا كان للون هذا التأثير من السرور والحزن فهو من عناصر بناء الصورة وأداة تأثير، ووسيلة إبهار، وكما أن للون أثرا على النفس، فكذلك للتشبيه أثر نفسي على المخاطب إذ يجعل الخفي جليا، والمعقول محسوسا، وقد أفاض الإمام عبد القاهر الجرجاني في بيان سبب تأثير التشبيه، وهو يفرق بينه وبين التمثيل ومن كلامه:". . . فأول ذلك وأظهره، أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي،

(٧) دلائل الإعجاز ص ٣٥٩.

وتأتيها بصريح بعد مكني، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم وثقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع لأن العلم المستفاد من طرق الحواس، يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في قوة الاستحكام، وبلوغ الثقة من غاية التمام، كما قالوا: ليس الخبر كالمعاينة، ولا الظن كاليقين"(٨).

وابن المعتز معروف بمقدرته على التنظير والتشبيه وهو القائل: "إذا قلت كأن ولم آت بالتشبيه بعدها فض الله فمي، يقول ابن رشيق: لا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه، فينقاد إليها طبعة، ويسهل عليه تناولها كأبي نواس في الخمر وأبي تمام في التصنيع والبحتري في الطيف وابن المعتز في التشبيه". . . (٩).

والمطالع لديوانه يجد إغرامه بالتشبيهات- والحسية منها على الأخص- حتى لكأن قصائده ومقطوعاته عرضا للتشبيهات والألوان.

والخمر والغزل عادة ما يتطلبان الألوان، فالشاعر يتحدث عن محبوبته، فيحتاج لأن يبرز جمالا ومفاتنها، وهذا يتطلب منه أن يصف عينيها بالحور وهو اجتماع السواد والبياض(١٠). ويصف شعرها فيتطلب منه أن يذكر لونه، ويصف وجهها فيذكر من الألوان الأبيض والأصفر ويشبهها بالشمس في لونها الذهبي الذي يشع نورا وإشراقا، ويتعرض لوصف ثيابها فيلونها حسب إحساسه فيصف ثيابها بالبياض كناية عن

(٨) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ص ١٢١ت: محمود شاكر ط أولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩١ م مطبعة المدني القاهرة.

(٩) العمدة لابن رشيق ١/ ٨٦، ت: محمد محي الدين عبد الحميد ط الخامسة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م- دار الجيل.

(١٠) لسان العرب لابن منظور مادة حور ٢/ ١٠٤٣- دار المعارف.

عفتها وطهارتها، أو يلونها بالألوان الزاهية كالأحمر والأخضر والأصفر كناية عن جمالها وترفها. ويتطلب منه أن يصف الخمر وأصالتها فيلونها بلون الشمس الذهبي وفقاعاتها باللون الأبيض، ويصف المكان الذي يتناحبان فيه ويفضل أن يكون ليلا يخفيهما عن أعين الرقباء وروضة غناء أشجارها ملونة، وزهورها فيها رائحة فمها وطراوة ريقها، ويصف الزهور وألوانها المختلفة من أحمر وأصفر وأخضر وغير ذلك من المشاهد التي تتطلب استعمال الألوان في رسم المشهد لما لها من أثر نفسي على المشاهد.

وقد تفنن ابن المعتز في استعماله للألوان، ووظفها في مشاهده التي رسمها توظيفا حيا بحيث لو رسمها رسام لم يزد عما أبدعته ريشة ابن المعتز فهو الخبير بدرجات الألوان وبتآلفها وتناسقها، وهو الملك ابن الملك الذي عاش في القصور بين الحدائق الغناء والزهور الفيحاء، كما عاش مع البيض الحسان اللواتي فتن قلبه، واستحوذن على لبه فهام بهن عشقا وأكثر فيهن وصفا ارتفع به قدر مكانتهن في قلبه واستيلائهن على فؤاده.

وأيضا فإن الشاعر عندما يقول الغزل، غالبا ما تكون روحه نشطة، ونفسيته هادئة، رضي الفؤاد، الحياة أمامه ملونة بلونها البرتقالي الذي يبعث على البهجة والسرور، وهل أكثر سرورا وأشد بهجة من مناجاة الأحبة عندها تتشنف الآذان، وتتفتح مسلم الجسد ويفرز إكسير الحياة فينقشع الظلام، وتتبدد الهموم والأحزان، وتحل الفرحة وتقر في النفس الدعة فيغزل الشاعر ثوبا فضفاضا قد تناسقت ألوانه وأبهجت الناظرين رؤيته ولا عجب: "فكل إناء بما فيه ينضح".

ابن المعتز ليس منفردا في استخدامه للألوان في شعره:

استخدم الألوان في رسم الصورة وتلوين المشهد ليست خاصية تفرد بها ابن المعتز في شعره بل هي ظاهرة عامة في الشعر العربي فامرؤ القيس في معرض وصفه لفرسه وسرعته يقول في معلقته:

كأن دماء الهاد يات بنحره عصارة حناء بشيب مرجل

فقد شبه الدم الجامد على نحر فرسه من دماء الصيد بما جف من عصارة الحناء على شعر الأشيب(١١).

فقد استعان امرؤ القيس بالألوان الأحمر وهو لون الدم، ولون الحناء المصبوغ به الشعر الأبيض، على رسم صورة هذا الفرس النجيب السريع، وقد تراكمت دماء أوائل الصيد والوحش على نحره عصارة حناء خضبت بها شيب مسرح(١٢).

ويصف طرفة ابن العبد محبوبته فيستعين بالألوان المختلفة في إبراز الصورة وتلوين المشهد يقول(١٣):

وفي الحي أحوى ينفض الترب شادن مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد

خذول تراعي ربابا بخميلة تناول أطراف البرير وترتدي

وتبسم عن ألمي كأن منورا تخلل حر الرمل دعص له ندى

(١١) شرح المعلقات السبع للزوزني ص ٤٨ ت: محمد محي الدين عبد الحميد دار الطلائع- بدون.

(١٢) السابق نفس الصحيفة

(١٣) ديوان طرفة ابن العبد ص ٣٣، تحقيق فوزي عطوي- بيروت ١٩٨٠م.

ثفته إياه الشمس إلا لثانه أسف ولم تكدم عليه بإثمد

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها عليه نقي اللون لم يتخدد

وطرفة في هذه المقطوعة يصف محبوبته وجمالها، فيعدد الألوان التي رسمت خيوطه، وساعدت على إبرازه وكشفه، فيذكر اللون الأسود والأحمر في قوله "أحوى" ففي اللسان". . وشفة حواء: حمراء تضرب إلى السواد"(١٤)، والأسود في قوله: "ألمي" وهو الذي يضرب لون شفتيه إلى السواد(١٥)، وفي قوله: "بإثمد" وهو حجر كريم يتخذ منه الكحل. . . وقيل: نفس الكحل"(١٦)، ويذكر اللون الأبيض في قوله: "لؤلؤ". وهو الدر ويتكون في الأصداف من رواسب وجوامد صلبة لماعة مستديرة(١٧)، ولونه يميل إلى البياض، ويذكر اللون الأخضر والأصفر في قوله: "زبرجد" وهو حجر كريم يشبه الزمرد وهو ذو ألوان كثيرة أشهرها الأخضر المصري والأصفر التركي(١٨). ويذكر اللون الأصفر المائل إلى الحمرة في تشبيه وجه الحبيبة بالشمس في قوله:

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها عليه نقي اللون لم يتخدد

(١٤) مادة حوا ٣/ ١٠٦١.

(١٥) اللسان مادة لمى ٤٠٨١/٥.

(١٦) اللسان مادة ثمد ١/ ٥٠٣.

(١٧) المعجم الوجيز ص ٥٤٨، مجمع اللغة العربية- طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية.

(١٨) المصدر السابق ص ٢٨٥

وامرؤ القيس وطرفة بن العبد وابن المعتز من شعراء العرب لم ينفردوا باستخدام الألوان في رسم صورهم عن غيرهم من الشعراء وهذا معناه أن للألوان في الشعر العربي مساحة واسعة، وتأثيرا كبيرا وهي عنصر في بناء الصورة وتركيبها، تجمل وتقبح، وتحسن وتزين، فينبغي أن ينظر إليها بالدراسة والمقارنة، حتى تتضح معالم التأثير، وتتحدد الإضافات التي تضيفها الألوان في رسم الصورة وكشف المشهد.

وهذه الدراسة خطوة في هذا الطريق، والأمل في الله أن تكون مثمرة، ونتائجها ملموسة.

الفصل الأول

الدلالات النفسية للألوان في التشبيهات

الواردة في الخمر

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الدلالات النفسية للألوان في التشبيهات الواردة في الخمر.

المبحث الثاني: ابن المعتز يلون صورة بألفاظ دالة على الألوان دون ذكر اللون صراحة.

المبحث الثالث: درجات الألوان في تشبيهات ابن المعتز.

الفصل الأول

الدلالات النفسية للألوان في التشبيهات الواردة في الخمر

تمهيد

عندما أردت الكتابة في هذا البحث أخذت أتصفح ديوان ابن المعتز فوجدته ليس كبقية دواوين الشعراء، قد عرض لكل الأغراض، وتناول كل الموضوعات والخمر والغزل من بين موضوعاته وأغراضه، فديوانه قائم على غرض الخمر والغزل فهو لا يرى الدنيا إلا الكأس والناي والساقي يقول[١٩]:

خليلي اتركا قول النصوح	وقوما فامزجا راحا بروح
فقد نشر الصباح رداء نور	وهبت بالندى أنفاس ريح
وحان ركوع إبريق لكأس	ونادى الديك حي على الصبوح
وحن الناي من طرب وشوق	إلى وتر يجاوبه فصيح
هل الدنيا سوى هذا وهذا	وساق لا يخالفنا مليح

حتى عندما يذكر نسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم عليه ولعه بالخمر مما يثير العجب يقول[٢٠]:

---

(١٩) ديوانه ص ١٤٦.

أكرع الكرعة الروية في الكأ س وطرفي من طرفه معقود

أيها السائلي عن الحسب الأط يب ما فوقه لخلق مزيد

نحن آل الرسول والعترة الحـ ق وأهل القربى فماذا تريد؟

ثم يتحدث عن بعض الموضوعات الأخرى مثل الحديث عن شجاعته وبأسه، ومدح الأئمة وخلافه مع بني عمه ويسميهم "بنو الغم والأذى" يقول(٢١):

بنو العم لا، بل هم بنو الغم والأذى وأعوان دهري إن تظلمت من دهري

وغالبا ما تكون قصائده طويلة في حديثه عن هذا الغرض، دلالة على أن لهذه الخلافات أثرا كبيرا في نفسه.

وقد جمع ابن المعتز بين الخمر والغزل في كثير من قصائده ومقطوعاته فهو إما أن يجعل المقطوعة في الغزل وحده أو في أو في الخمر وحده أو فيهما معا، وهو واحد من المشهورين بجودة القطع من المولدين(٢٢)، أما قصيدته: فهي قصيدة الجاهليين يبدأها بالغزل ويثني بالخمر ثم يدلف إلى غرضه.

---

(٢٠) ديوانه ص ١٥٤، ١٥٥.

(٢١) ديوانه ص ١٩٣.

(٢٢) العمدة لابن رشيق ١/ ١٨٨ سابق.

المبحث الأول

الدلالات النفسية للألوان في التشبيهات الواردة في الخمر

تشبيهات الخمر عند ابن المعتز كثيرة ومتنوعة، لأنه أغرم بها واستولت على فكره، ولذا أكثر من تعداد أسمائها، فهو يسميها: "قهوة ذهبية"، "وقهوة صفراء"، و"الذهب الرطب"، و"بنت كرم" و"لجينا بالمدامة مذهب"، و"ياقوت العصير"، و"مصباح الظلام" و"السلافة العذراء"، و"صفراء كرخية" و"قهوة بابلية" ويشبهها بالنار، وبالذهب، وبالياقوت، وبالحية وثبت من الرمضاء، وبمصباح السماء، وباللؤلؤ، وبالكوكب الوقاد، وبشعاع الشمس، وبأنها نور بلا نار، وبالخيول الشقر، وبالسراج الأزهر، وبالقبس، والورس وهو نبات أصفر كالسمسم إلى غير ذلك.

وكما هو واضح فكلها تشبيهات مراعى فيها اللون الأصفر المائل إلى الحمرة الذي استهواه كثيرا لأنه لون الخمر فقد لون كثيرا من صور الخمر به حتى لكأنها شمس يتدلى شعاعها الذهبي فيضئ جنبات المجلس أو خد معشوقه المتورد أو نار تتلظى، أو سيف مسلول مصقول، يتوهج نارا يحصد به رقاب الأعداء. . .

ولشيوع اللون الأصفر في تشبيهات ابن المعتز كثير من الأسباب منها:

١- أنه صاحب للخمر لا يمل صحبتها، ولا يسأم شربها فقد شغله قرع الكؤوس عن عواذ له يقول[٢٣]:

يا صاح يشغل سمعي عن عواذ له قرع الكؤوس بأفواه القوازيز[٢٤]

ولونها أصفر ذهبي فشبهها بالذهب والنار والياقوت وما إلى ذلك.

٢- أنه عاشق متوله ولج هذا العالم وخبر دروبه، فهو يصف معشوقته ويشبهها بالشمس وخدها بالنار وما إلى ذلك.

٣- أنه محارب جلد وبطل مغوار أكثر من خوض الحروب ووصفها، والسيوف وبريقها، وهو ذو عداوات وإحن مع بني عمومته، بسبب الخلافة فالسيف منه غير بعيد، ورهج الحرب في ناظريه جد قريب، يقول[٢٥]

وقد ألاقي بأس العداة على طرف بقضب كالنار يتقد

أو عاسل كالشجاع هاج لي النف س ودرع كأنها الزبد

وإليك التفصيل. . .

---

(٢٣) ديوانه ص ٢٦٢.

(٢٤) القوازيز: الجماجم الصغار التي هي من قوارير، اللسان مادة (قزز) ٥/ ٣٦٢٠.

(٢٥) ديوانه ص ١٥٧

تشبيه الخمر بالنار وما يقرب منها:

تشبيهات ابن المعتز في الخمر تدور حول تلوينه الخمر باللون الأصفر الذي يميل إلى الحمرة، وفقاعات الكأس يلونها دائما باللون الأبيض يقول[٢٦]

فتنتنا السلافة العذراء	فلها ود نفسه والصفاء
روح دن لها من الكأس جسم	فهي فيه كالنار وهو هواء
وإذا مجت الأباريق بالمز	ن بها شائب وشاب الماء
وكأن الحباب؛ إذ مزحوها	وردة فوق درة بيضاء
وكأن الذي يشم ثراها	كوكبا كفه عليه سماء

فهو يسمى الخمر "السلافة العذراء" كناية عن أصالتها وتعتقها[٢٧] فالسلافة أول ما يعصر من الخمر، والعذراء[٢٨] الرملة التي لم توطأ والضمير في قوله "نفسه" يرجع إلى الساقي، فكأنه لشهرته استغنى عن ذكره صراحة، وقد حوت المقطوعة أربع تشبيهات الأول في قوله: "فلها ود نفسه والصفاء" وهو تشبيه ضمني، حيث شبه الخمر في صفائها ونقائها، وتأثيرها الطيب على شاربيها- في زعمه- بنفس الساقي الودودة الصافية، وساعد على هذا التشبيه وصفها بالسلافة العذراء، وهو تشبيه محسوس بمعقول،

---

(٢٦) ديوانه ص ١٦.

(٢٧) اللسان سلف ٣/٢٠٦٩.

(٢٨) اللسان عذر ٤/ ٢٨٥٩.

والتشبيهات المعقولة نادرة عند ابن المعتز، فأغلب تشبيهاته حسية، وقد فلسف بعض الباحثين[٢٩] سر جنوح ابن المعتز إلى التشبيهات الحسية وبعده عن التشبيهات العقلية، فقال: "وتشبيهات ابن المعتز أكثرها تشبيهات حسية، يستمدها من بيئته، فهو يصور مظاهر الطبيعة، وشتى ألوان الحياة المادية، صورا مادية لها سحرها وجمالها الفني الرائع، وقلما يعني بتصوير الوجدانيات والعقليات، لأن خياله كان ثريا بالألوان المادية للحياة المترفة التي شاهدها وعاش فيها ابن المعتز، فلم يؤثر أن يتجاوزها إلى دائرة التخييل والتصوير للحقائق المجردة البعيدة عن مظاهر الإحساس في الحياة، فكان لحياته أثر بالغ في صنعته في التشبيه، وجنوحه بها عن حقائق العلم والفلسفة" وقد خلا هذا التشبيه من الألوان.

والتشبيه الثاني يشبه الخمر بالنار في قوله: "فهي كالنار وهو هواء" في لونها الأصفر الذهبي وفي صفائها ونقائها، ويؤكده بقوله: "وهو هواء" فالضمير يرجع إلى الكأس.

والتشبيه الثالث: شبه الفقاعات "الحباب" التي تعلو الكأس بالوردة فوق درة بيضاء، ويبدو أن ابن المعتز قد خانته عقلية الفنان المنسق للألوان في المشبه به فهو يريد أن يرسم صورة شبيهة بالخمر الصفراء تعلوها فقاعات بيضاء، ولكنه جعل المشبه به درة ولونها أبيض فوقها وردة بيضاء فأتى بلونين أبيض فوق أبيض، وجعل هذه الصورة تشبه الخمرة الصفراء تعلوها فقاعات بيضاء، ولا يحدث التناسق والتلاؤم في وجه الشبه إلا إذا رأينا أن الدرة من كثرة لمعانها وإشراقها عكست لونا يميل إلى الصفرة التي تشبه صفرة

(٢٩) الدكتور خفاجي في كتابه، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان ص ٢١٦ ط ثانية ١٩٥٨م، دار العهد الجديد للطباعة.

الخمر والتشبيه محسوس فيه خيال رائق استطاع أن يبدعه ابن المعتز، ويكون ألوانه، ويرسم خيوطه، ويجوز إعجاب السامعين، وهو ينظر للخمر ويخبر عن أصالتها وتعتقها، وكأنه موظف إعلانات، يحسن عرض سلعته حتى وإن مزج كلامه بالباطل، وخلطه بالخداع. فباطل الشعراء وخداعهم خيالات تروق، وإبداعات وخصائص وتفردات.

وتلوين ابن المعتز الخمر باللون الأصفر وفقاعاتها باللون الأبيض ظاهرة مطردة في شعره كقوله- مثلا- (٣٠):

أما ترى يومنا قد جاء بالعجب فلا يعطل من لهو ومن طرب

فقام مثل قضيب حركته صبا حلو الشمائل مطبوع على الأدب

يزف كأسا بمنديل متوجة ورأسها فضة والجسم من ذهب

فقوله "ورأسها فضة" يقصد الفقاعات التي تعلو الكأس، ويلونها بلون الفضة البراق، وقوله: "الجسم من ذهب" يقصد الخمر ويلونها بلون الذهب هذا المعدن النفيس الذي: "لا تأكله النار في حال التعليق، ولا تأكله الأرض ولا تغيره، وهو أنقى كل شيء وأصفاه، ويقال في المثل: أنقى من الذهب، وهو بيت الفرح

(٣٠) ديوانه ص ٧٣.

والسرور. . . وهو أثقل الأشياء فيجعل في الذئبق الذي هو أثقل الأشياء فيرسب. . وهو عزيز وبه يتم الملك [٣١] ويقول:[٣٢]

وأمطر الكأس ماء من أبارقه فأنبت الدر في أرض من الذهب

فقوله: "وأنبت الدر" ولونه أبيض مشرق لامع، ومقصوده فقاعات الكأس، وقوله: "في أرض من الذهب" يقصد الخمر التي بداخل الكأس، ولونها الذهبي الذي يحوز الإعجاب، ويسري هموم عشاقها.

والتشبيهات الثلاثة السابقة واضحة بديعة رائقة، وقد ظل المشهد باللون الأصفر وهو لون مثير دافئ يحمل في طياته الكثير من المتناقضات، فهو رمز للشمس مصدر الضياء والنور، وهو رمز الذهب ذلك المعدن النفيس الذي يعني الثراء والعظمة والقوة، ويتخذ في بعض الأحيان مصدرا للغش والخداع، وربما كانت الأمثال الدارجة "ضحكة صفراء" مشتقة من هذه المعاني"[٣٣].

ومقصود اللون الأصفر في هذا المشهد أنه رمز لما يسر ويبهج وأنه رمز الشمس والذهب والعظمة والقوة والثراء، فشارب الخمر بعد أن تعيث في عقله فسادا يشعر بهذه المعاني وهي مغلوطة في عقله يتوهم أنه لامس الثريا، وشارك الملوك أسرتهم، وألبس تيجانهم، واللون الأبيض حيث شبه فقاعات الكأس بوردة فوق درة بيضاء، وهو رمز للنقاء والنظافة والوضوح، كما أنه رمز للطهارة والنور والغبطة والنصر والسلام،

---

(٣١) عمدة القارئ على شرح صحيح البخاري ٦٣/٤ ضبط عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية- بيروت ط أولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

(٣٢) ديوانه ص ٧٥.

(٣٣) راجع الرسم بالألوان في القرآن ص ١٤٩ سابق.

وكلمة أبيض في اليونانية معناها: الفرح والسعادة وهو لون زي المعتمرين، وحجاج بيت الله الحرام من الذكور، ولون وجوه الفائزين يوم الدين[٣٤]، واللون الأبيض مريح للعين، مهدئ للنفس فيه إثارة وإبهار[٣٥]، وقد ذكر الزوزني[٣٦] في شرحه لقول طرفه[٣٧]:

نداماي بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومجسد

أربعة أوجه للوصف بالبياض فقال: ". . . . وصفهم بالبياض لإشراق ألوانهم، وتلألؤ غررهم في الأندية والمقامات، إذ لم يلحقهم عار، يعيرون به، فتتغير ألوانهم، أو وصفهم بالبياض لنقائهم من العيوب لأن البياض يكون نقيا من الدرن والوسخ، أو لاشتهارهم لأن الفرس الأغر مشهور فيما بين الخيل والمدح بالبياض في كلام العرب لا يخرج من هذه الوجوه".

وقد اختار من الألوان ما يبهج الصورة، ويجمل المشهد، وقد تزاحمت المعاني الكريمة سعيا وراء هذه الألوان البهجة، التي رسمت مشهدا يروق لابن المعتز وأمثاله، فهو لون الخمرة العتيقة، ولون الخدود الوضاءة.

أما التشبيه الرابع: "وكأن الذي يشم ثراها. . . كوكبا كفه عليه سماء" فلعله أراد أن يشبه الإنسان الذي يشم ثرى الكأس بالكوكب، حيث تطاول وتعالى وظن أنه يناطح العلياء، ومع هذا العلو فإن كفه تحمل

(٣٤) المرجع السابق ص ٢٦٥.

(٣٥) السابق ص ٢٦٧

(٣٦) شرح المعلقات السبع للزوزني ص ٤٩ ط أولى ١٤٠٥، ١٩٨٥م دار الكتب العلمية- بيروت.

(٣٧) ديوان طرفة بن العبد ص ٤٤ تحقيق: فوزي عطوى- دار صعب بيروت سنة ١٩٨٠م.

سماء، وإنسان هذه صفته، قد بلغ من التعالي مبلغا، واتصف بالزهو والخيلاء، وكل هذا بسبب أنه شم ثرى الكأس، فما ظنك لو شربها؟!!.

وقد يؤخذ عليه تشبيهه بالكوكب وهو معتم، ففيه نوع من انحطاط قدره واتضاع منزلته من حيث لا يدري، أو لعله نظر إلى مطلق علو، ولم ينظر إلى علوها في مقابل علو الشمس.

والبيت الثالث في المقطوعة ليس له معنى واضح، أو دلالة مفهومة مما حدا بمحقق الديوان أن يقول: هذا البيت غامض، وربما يكون فيه تحريف(٣٨).

٤- ويقول في مقطوعة بعنوان "ياقوت العصير"(٣٩):

معصفرة أتخت بها	وقرن الشمس لم يغب
وقد أرقت لفقد الكر	م فيها أعين العنب
وجاس عباب واديها	بمنهل ومنسكب
وياقوت العصير بها	يلاعب لؤلؤ الحبب
فيا عجبي لعاصرها	وما يغني بها عجبي

(٣٨) ديوانه ص ١٦ هامش ١.

(٣٩) ديوانه ص ٧٢.

وهي صورة لمجلس شراب وقد وصف الخمر بأنها "معصفرة" أي ملونة باللون الأصفر المائل إلى الحمرة، وفقاعاتها بلونها الأبيض الفضي كما عودنا على وصفها بذلك، ولذا صح أن يطلق عليها "معصفرة" فالعصفر: هو الذي يصبغ به، وقد عصفرت الثوب فتعصفر(٤٠) ثم وصف وقت شرابه بقوله "وقرن الشمس لم يغب" وهو وقت الغروب وذكره في مواطن أخرى بأنه وقت ما قبل الفجر وهو الأكثر دورانا عنده، أما وقت ما قيل الغروب فلم يذكره إلا هنا ويبدو أنه كان يسبح بحمد الخمر بكرة وعشيا.

ثم ذكر مشاعر العنب المؤرقة لأنه قطف من كرمه، وجعل له "أعين" وذكر العنب خاصة، لأنه يصنع منه الخمر الذي ملأ المكان، وتواترت كؤوسه، وتعاقبت أقداحه، ثم شبه عصير الخمر بالياقوت في لونه الأصفر الذهبي في قوله: "وياقوت العصير بها "كما شبه حببها باللؤلؤ في قوله: "يلاعب لؤلؤ الحبب "واللون والشكل مقصودان في هذا التشبيه حيث فقاعات الخمر الدائرية البيضاء تشبه حبات اللؤلؤ في لونها وحجمها وشكلها، وهو تشبيه فيه حسن وبداعة، حيث استطاع أن يوجد شبها لفقاعات الخمر في حبات اللؤلؤ واختيار لفظه "اللؤلؤ" لأنها تحمل المنظر وتحسنه يقول ابن كثير (٤١) في تفسير قوله تعالى: **(وإذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤا مَّنثُورا)**(٤٢) ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن".

---

(٤٠) اللسان مادة عصفر ٤/ ٢٩٧٣

(٤١) ٤/ ٤٥٦

(٤٢) سورة الإنسان آية ١٩.

وقد أورد الزمخشري[٤٣] عند تفسير هذه الآية هذه القصة: "وعن المأمون أنه ليلة زفت إليه بوران بنت الحسن بن سهل وهو على بساط منسوج من ذهب، وقد نثرت عليه نساء دار الخلافة اللؤلؤ. فنظر إليه منثورا على ذلك البساط، فاستحسن المنظر وقال لله در أبي نواس كأنه أبصر هذا حيث يقول[٤٤]:

كأن صغري وكبري من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

وهو تشبيه مفرد حسي، مغرق في الحسية، حيث يدرك بحاسة البصر واللمس والذوق والشم، وهو من إضافة المشبه به إلى المشبه أي: عصير كالياقوت، وحبب كاللؤلؤ، وقد أكثر ابن المعتز من هذا النوع من التشبيه كقوله[٤٥]:

فأبدت لنا كشحا هضيما على نقا ورمان صدر ما ليانعه هصر

فقوله: "ورمان صدر" أي: وصدر كالرمان فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه، وقد لحظ فيه الشكل واللون وقوله[٤٦]:

لا ورمان النهود فوق أغصان القدود

(٤٣) تفسير الزمخشري ٤/ ١٩٩، دار الفكر- بيروت.

(٤٤) ديوان أبي نواس ص ٣٩، شرح الأستاذ علي فاعور- دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٤٥) ديوانه ص ٢٢٠.

(٤٦) ديوانه ص ١٧٣.

فقد شبه النهود بالرمان في الشكل واللون والتقدير: نهود كالرمان كما شبه القدود بالأغصان في الدقة وقوله[٤٧]:

ومحرق طاقين من سبج في عاج وجه لاح كالسرج

فقوله: "في عاج وجه: "أي: وجه كالعاج، والعاج هو المسك[٤٨]، ويلمح فيه اللون الأبيض لأنه لون العاج، وقوله[٤٩]:

"فنفض عن سرباله لؤلؤ الندى. . . . . ".

أي: ندى كاللؤلؤ، ويلمح فيه اللون والشكل، فلون اللؤلؤ الأبيض البراق شبه به قطرات الندى البلورية، وقوله[٥٠]:

فانظر زبرجد خد صار من سبج وصب دمعا عليه كل بكاء

أي: خد كالزبرجد، وقوله[٥١]:

وظلت تدير الراح أيدي جآذر عتاق دنانير الوجوه ملاح

أي: الوجوه دنانير في الاستدارة وهو نوع جمال في المرأة وقوله[٥٢]

---

(٤٧) ديوانه ص ١٣٠

(٤٨) اللسان مادة عوج ٤/ ٣١٥٦.

(٤٩) ديوانه ص ٣٨٥.

(٥٠) ديوانه ص ١٤.

(٥١) ديوانه ص ١٤٥.

لوي صدغه كالنون من تحت طرة ممسكة تزهى بعاج جبين

أي: جبين كالعاج.

وقد شاع في هذه المقطوعة اللون الأصفر الذهبي الذي يعبر عن لون الخمرة الأصيلة الذي تمثل في قوله: "معصفرة" وقوله: "وقرن الشمس لم يغب" وهي ساعة الغروب وتكون فيه الشمس مائلة إلى اللون الأصفر الذي يميل إلى الحمرة، وهو دائما ما يشبه به لون الخمرة، وقوله: "وياقوت العصير بها" كما شاع اللون الأبيض المتمثل في قوله: "لؤلؤ الحبب".

٣- ويشبه الخمر بالنار في قوله[٥٣]

ألا فاسقنيها قد مشى الصبح في الدجى عقارا كلون النار حمراء قرقفا

فناولني كأسا أضاء بناته تدفق ياقوتا ودرا مجوفا

ولما أذقناها المزاج تسعرت فخلت سناها بارقا متكشفا

---

(٥٢) ديوانه ص ٤٤٠.

(٥٣) ديوانه ص ٣٢٢.

وهذه الأبيات جزء من مقطوعة بلغت سبع أبيات، وهو يطلب من الساقي أن يسقيه الخمر وقت البكور: "قد مشى الصبح في الدجى" وهو ما يكون قبيل الفجر، وقد أكثر ابن المعتز من ذكر هذا الوقت كقوله:(٥٤)

وراح تلقيـــــت الصـــــبوح بكأســـــها وقــد ســار جــيش الصــبح في الظلمــات

وقوله:(٥٥)

ونـــــدمان ســـــقيت الـــــراح صـــــرفا وأفـــــق الصـــــبح مرتفـــــع الســـــجوف

ويبدو أنه وقت أكثر أنسا ومتعة ورغبة في احتساء الخمر عندهم- لذا صدر طلبه بـ "ألا" التحضيضية التي تدل على الحث والمسارعة، ثم عبر بضمير الخمر "فاسقنيها" دون سبق ذكرها وكأنها لشهرتها عنده، ورفعة مكانتها في قلبه، وشغفه بها صارت غنية عن الذكر شهيرة عن التصريح وهي ظاهرة تكررت عنده كثيرا كقوله:(٥٦)

ونـــــدمان دعـــــوت وهـــــب نحـــــوي وسلســـــلها كمـــــا انخـــــرط العقيـــــق

(٥٤) ديوانه ص١١١.

(٥٥) ديوانه ص٣٢٢.

(٥٦) ديوانه ص٣٤٣.

فقوله: "سلسلها" الضمير يعود إلى الخمر دون سبق لا سمها وقوله:(٥٧)

شـــــــربتها والـــــــديك لم ينتبـــــــه ســـــكران مـــــن نومتـــــه طـــــافح

فقوله: "شربتها" الهاء عائدة على الخمر دون أن يسبق لها ذكر لشهرتها عنده، ثم يذكر من أسماء الخمر "عقارا" وسميت بذلك لأنها عاقرت العقل وعاقرت البدن أي: لزمته(٥٨)، ويشبهها بلون النار، ومن عادته أن يشبهها بالنار ولا يذكر اللون صراحة ولونها أصفر يميل إلى الحمرة وهنا نص على لونها "حمراء قرقفا" ولعل هذا راجع إلى أن لون النار عندما تشتد ينقلب إلى اللون الأحمر، وهذا معناه: أصالة هذه الخمر وشدة تأثيرها ولذا وصفها بقوله: "قرقفا" والقرقف: الخمر وهو اسم لها قيل سميت قرقفا لأنها تقرقف شاربها أي: ترعده. (٥٩)

أول لعل هذا اللون يذكره بلون الدم والحرب التي يتمناها لحرب أعدائه لولا ضعفه وقلة حيلته فكان ذكر هذا اللون تسلية لنفسه وتسرية عن همه حتى ولو ذكره في معرض اللهو والخمر.

وهو تشبيه مفرد "عقارا" بمفرد مقيد "حمراء قرقفا" محسوس بمحسوس. وقد أحاب الساقي طلبه وسارع إلى تلبية رغبته وناوله كأسا لشدة صفائه ولمعانه أضاءت بنانه، وهو عندما يصبها ترى: "ياقوتا ودرا مجوفا" فشبه السائل المتدفق من الكأس بالدر والياقوت فقد شبه الخمر بالياقوت في صفرته ونقائه

(٥٧) ديوانه ص١٤٤.
(٥٨) اللسان مادة عقر ٤/ ٣٠٣٨.
(٥٩) اللسان مادة قرف ٥/ ٣٦٠٣.

كما شبه فقاعات الخمر بالدر في بياضها وإشراقها ولمعانها، وقد أتى بكلمة "مجوفا" بيشير إلى وجود اللونين وتناسقهما ففي اللسان، وفرس أجوف ومجوف أبيض الجوف إلى منتهى الجنبين وسائر لونه ما كان(٦٠). وهو تشبيه مفرد "السائل المتدفق من الكأس" بمفرد "ياقوتا" ثم مفرد مقيد "ودرا مجوفا" وهذا التشبيه يطلق عليه البلاغيون تشبيه الجمع: وهو أن يتعدد المشبه به دون المشبه. (٦١)

وفي البيت الثالث: شبه الخمر بعد مزجها بالماء "ولما أذقناها المزاج تسعرت والمزاج: هو الماء الذي تمزج به الخمر(٦٢) بالسحابة التي بها برق قد ملأ السماء "فخلت سناها بارقا متكشفا" في الضياء واللمعان والبارق: سحاب ذو برق، والسحابة بارقة وسحابة بارقة ذات برق(٦٣) وتكشف البرق إذا ملأ السماء(٦٤) وهي صورة واقعية محسوسة، فعندما تمتلئ السماء بالسحاب الممطر يشتد البرق، ويصدر أصواتا وتضيء السماء على فترات فقد رأى سلسال الخمر براقا لامعا مضيئا، وعبر بـ "أذقناها" وأسند الذوق إلى الخمر تنزيلا لها منزلة العقلاء الذين يتذوقون الطعم، ويعرفون مقدار الماء الذي يصلح للخمر وتصلح به وقوله "تسعرت" أي: توقدت وتوهجت وصارت عتيقة أصيلة جاهزة للشرب صالحة للأنس

(٦٠) اللسان مادة جوف ١/ ٧٢٨.

(٦١) انظر الإيضاح للخطيب القزويني ص٣٧١ تحقيق د/ خفاجي ط٣، ١٣٩١هـ ١٩٧١م دار الكتاب اللبناني.

(٦٢) اللسان مادة مزج ٦/ ٤١٩١.

(٦٣) اللسان مادة برق ١/ ٢٦١.

(٦٤) اللسان مادة كشف ٥/ ٣٨٨٣.

وفيها أن لونها صار يضرب إلى السواد من كثرة تعتقها[٦٥] وهو تشبيه مفرد "سناها" بمفرد مقيد "بارقا متكشفا" محسوس.

ويلاحظ أنه عبر بالمفرد في قوله: "ألا فاسقنيها" "فناولني" دلالة على تعطشه إليها وتشوقه لاحتسائها، ثم عبر بلفظ الجمع في قوله: "فلما أذقناها" وكأن القائمين على إعدادها وتهيئتها جمع، يتناصرون في القيام بمتطلبات أصالتها كما أن الشرب يحلو جمعا، ويزداد الأنس مع وجود السمار، ثم رجع إلى التعبير بلفظ المفرد في قوله: "فخلت سناها" وكأنه أكثرهم خبرة ودراية بالخمر صنعة وشرابا.

والألوان التي ساعدت في إبراز هذا المشهد ورسم تلك الصورة هي: لون الصبح المشرق المنير المنسلخ من الليل المظلم الحالك في قوله: قد مشى الصبح في الدجى ولون الخمر الحمراء من شدة توهجها وتوقدها حتى أرعدت شاربيها، في قوله: "كلون النار حمراء قرقفا"، ولون الياقوت الأصفر الذهبي والدر المجوف في قوله: "تدفق ياقوتا ودرا مجوفا" كما لون شعاع الخمر بلون السحابة المضيئة لوجود البرق فيها ولون الضياء تميل إلى اللون الفضي، والشاعر لم يترك لونا يضفي على صورته بداعة وخلابة إلا خلطه واستعمله وجعله عنصر بناء لها.

(٦٥) اللسان مادة سعر ٣/ ٢٠١٥.

٤- ومن مشاهد ابن المعتز الخمرية قوله[٦٦]

وكـــأس كمصـــباح الســـماء شـــربتها علـــى قبلـــة أو موعـــد بلقـــاء

أتـــت دونهـــا الأيام حـــتى كأنهـــا تســـاقط نـــور مـــن فتـــوق سمـــاء

تـرى كأسـها مـن ظـاهر الكـأس سـاطعا عليـــك ولـــو غطيتهـــا بغطـــاء

الأبيات الثلاثة في وصف الخمر، وتحوي تشبيهين يلحظ فيهما اللون الأصفر ففي البيت الأول يشبه الكأس بمصباح السماء في الصفاء واللمعان، فإذا ما قيد المصباح بأنه "مصباح السماء" أي أنه مصباح إلهي فإن درجة الصفاء واللمعان تزداد بقوة لأنه لا مقارنة بين صنعة الخالق وصنعة المخلوق.

وقوله "وكأس" الواو واو "رب" أي: ورب كأس، أي هي نوع من الكؤوس قليل أن يجود بها الزمان، ويسمح بها العذول؛ ولذا قرنها بقوله: على قبلة أو موعد بلقاء" وهما أمران معدودان عند العشاق من الأمور البعيدة، فناسب استعمال "رب" لهذا المعنى، وكثر استعماله لهذا الأسلوب للغرض الذي ذكر كقوله:[٦٧]

وليلـــة مـــن حســـنات الـــدهر مـــا ينمحـــي موضـــعها مـــن ذكـــري

---

(٦٦) ديوانه ص ١٦.

(٦٧) ديوانه ص ٢٣٤.

ولـــــيس تســـــلوها بنـــــات صـــــدري سـ ـــــريت فيهـــــا بخيـــــول شـــــقر

فقوله: "وليلة" أي ورب ليلة وهو أسلوب تقليل يتماشى مع مشاعره وأحاسيسه فليالي الأنس والنعيم تمر بسرعة، ولذا يعدها من حسنات الدهر، وقوله:(٦٨)

وكـــــأس ســـــبقت إلى شـــــربها عـــــدولي كـــــذوب عقيـــــق جـــــرى

وقوله:(٦٩)

وراح كلـــون التـــبر يضـــحك كأســـها صـــبحت بهـــا شـــربا كرامـــا وغاديـــت

وقوله:(٧٠)

ومدامـــــة بكســـــو الزجـــــاج شـــــعاعها كـــــالخيط مـــــن ذهـــــب إذا مـــــا ســـــلت

وهي ظاهرة انتشرت في أساليب ابن المعتز الشعرية وغيره من الشعراء مفادها: أن ما تجود به المحبوبة قليل فناسب استعمال واو رب في مثل هذه المواطن.

(٦٨) ديوانه ص٢١.

(٦٩) ديوانه ص٩٧.

(٧٠) ديوانه ص١١٢.

وقوله: "أتت دونها الأيام" يريد أنها خمر عتيقة، طال مكثها، وتعاقبت عليها الأيام، وهذا شرط في أصالتها، ولذا شبهها بقوله: حتى كأنها تساقط نور من فتوق السماء، فهو تخيل أن السماء بها حجاب به فتوق وفتحات تسقط منه ومضات نور هي الخمر صفاء وإشراقا.

والتشبيه الأول لا أثر للخيال فيه، وإنما هو تشبيه الخمر بمصباح وإن كان تقييد المصباح بكونه "مصباح السماء" أضفى عليه شيئا من البداعة وأكسبه قوة الصفاء وشدة الضياء، لكنه تشبيه مكرر عند الشعراء مع اختلاف في الصياغة، أما التشبيه الثاني، وجعله الخمر حبات نور تتساقط من فتوق السماء فهو تشبيه أعمل فيه خياله وفيه دقة وإعمال للخيال.

وقد ظلل هذه الصورة باللون الأصفر الوضاء في قوله "تساقط نور" واللون السماوي المائل للون الفضي في قوله "من فتوق سماء" ومع تشابك اللونين وتناسقهما، فإن جعله للسماء فتوقا، وللخمر حبات نور تتساقط فيه من الدقة والخيال ما يجعله يضاف إلى خصائص شعره.

وقوله في البيت الأخير: نرى كأسها من ظاهر الكأس ساطعا، أراد بالكأس الأولى الخمر على المجاز المرسل ذي العلاقة المحلية كقول عنترة:[٧١]

فشـــككت بالـــرمح الأصـــم ثيابـــه لـــيس الكـــريم علـــى القنـــا بمحـــرم

(٧١) لم أجده في ديوانه، وهو من محفوظاتي السابقة.

بل إن التعبير عن الخمر بالكأس فيه ما يدل على صفائها وصفائه بحيث لا تستطيع أن تفرق بينهما، وقد وجدت ما يؤكد هذا عند ابن منظور بقوله[٧٢]: "والكأس الزجاجة ما دام فيها شراب" وقال أبو حاتم: الكأس الشراب بعينه.

٥- ومن مشاهده الخمرية قوله:[٧٣]

ونـــدمان دعـــوت وهـــب نحـــوي وسلســـلها كمـــا انخـــرط العقيـــق

كـــأن بكأســـها نارا تلظـــى ولـــولا المـــاء كـــان بهـــا حريـــق

وقـــد مالـــت إلى الغـــرب الثـــريا كمـــا أصـــغى إلى الحـــس الفـــروق

كـــأن غمامـــة بيضـــاء بيـــني وبـــين الـــراح تحرقهـــا الـــبروق

كـــأن نجومهـــا والبـــدر يحـــدو بليلتـــه ســـليمان بفيـــق

في هذه المقطوعة يتحدث عن الخمر ويشبه سلسالها بالعقيق وهو: خرز أحمر يتخذ منه الفصوص الواحدة عقيقة[٧٤] في قوله: "وسلسلها كما انخرط العقيق" وهو تشبيه مفرد محسوس حيث

(٧٢) اللسان مادة كأس ٥/ ٣٨٠٢.

(٧٣) ديوانه ص٣٤٣.

(٧٤) اللسان مادة عقق ٤/ ٣٠٤٤.

شبه سلسال الخمر بالعقيق واختار الكاف أداة له، وقد شبهه في مواطن أخرى بالخيط من الذهب في قوله:(٧٥)

ومدامـــة يكســـو الزجـــاج شـــعاعها كـــالخيط مـــن ذهـــب إذا مـــا ســـلت

وشبهه بالنور المتساقط من فتوق سماء في قوله:(٧٦)

أتـــت دونهـــا الأيام حـــتى كأنهـــا تســـاقط نـــور مـــن فتـــوق الســـماء

وشبهه بالياقوت والدر كما في قوله:(٧٧)

فنـــاولني كأســـا أضـــاء بنانـــه تـــدفق ياقـــوتا ودرا مجوفـــا

ويشبهه بالسبيكة والحية وثبت من الرمضاء في قوله:(٧٨)

نزلـــت كمثـــل ســـبيكة قـــد أفرغـــت أو حيـــة وثبـــت مـــن الرمضـــاء

وهكذا تلاحظ اللون الأصفر في تشبيهات ابن المعتز للخمر وسلسالها واضحا جليا.

ثم يشبهها وهي في الكأس بأنها "نارا تلظى" وهو تشبيه مفرد بمفرد مقيد محسوس حيث شبه الكأس بـ "نارا تلظى" واختار كأن أداة له ليؤكد تقارب النسبة من المشبه به، وهو يقصد اللون الأصفر

(٧٥) ديوانه ص١١٢.

(٧٦) ديوانه ص١٦.

(٧٧) ديوانه ص٣٢٢.

(٧٨) ديوانه ص١٥.

الذي يميل إلى الاحمرار، ووصفت النار بأنها "تلظى" أي: شديدة اللهب والتوهج والتوقد[٧٩]. دلالة على صفاء ونقاء الخمر ويؤكد هذا المعنى بقوله: "ولولا الماء كان لها حريق".

وكعادته في تلوين فقاعات الكأس باللون الأبيض فيختار له لون الفضة كما في قوله:[٨٠]

يصوغ عليها الماء شباك فضة لها حلق بيض تحل وتعقد

ويختار لها هنا لون الغمامة البيضاء قد حرقتها البروق فكأنه شبه الخمر تحت الفقاعات البيض بالبرق ولونه يميل إلى الاصفرار، وهذا البرق قد أحرق الفقاعات البيض. وهو تشبيه مفرد "فقاعات الكأس" بمفرد مقيد "غمامة بيضاء" وهو تشبيه محسوس.

ويلاحظ أن تشبيهات المقطوعة حسية، بل إنها تدرك بأكثر من حاسة فالتشبيه الأول وهو تشبيه سلسال الخمر بالعقيق يدرك بحاسة البصر واللمس والذوق والشم والتشبيه الثاني، وهو تشبيه الكأس بالنار يدرك بحاسة البصر واللمس والتشبيه الثالث، وهو تشبيه الفقاعات بالغمامة البيضاء، يدرك بحاسة البصر واللمس.

ثم يشبه نجوم هذه الليلة والفجر آذن بالظهور بـ "سليمان" يفيق في قوله:

كأن نجومها والفجر يحدو بليلته سليمان يفيق

---

(٧٩) اللسان مادة لظى ٥/ ٤٠٣٩.

(٨٠) ديوانه ص١٨٠.

وقد حاولت أن أجد شبها بين المشبه: "كأن نجومها والفجر يحدو بليلته" وبين المشبه به: "سليمان يفيق" فأعياني التخريج والتوجيه، ولعله تصور أن الليل يشبه إنسانا سكرانا، والنهار يشبه إنسانا متنبها متيقظا، وجعل إيذان الليل بالانتهاء، وإقبال الصبح بضيائه، يشبه إنسانا كاد أن يتعافى من سكره، ويسيطر على نفسه، وتتيقظ أحاسيسه ومشاعره، وهذا المعنى يتماشى مع التشبيه. وقد عقب محقق الديوان على هذا التشبيه بقوله: "وجه الشبه في تشبيه النجوم بسليمان يفيق غامض، ولعله يشير إلى سليمان مخصوص وحالة مخصوصة". (٨١)

وقد ظلل هذه الصورة باللون الأحمر كما في قوله: "وسلسلها كما انخرط العقيق" وقوله: "كأن بكأسها نارا تلظى" وقوله: "ولولا الماء كان لها حريق" كما تخللها اللون الأبيض الذي يشير إلى فقاعات الخمر في الكأس كقوله: "كان غمامة بيضاء" ثم لون النجوم والفجر وما يمثلانه من الضياء والنور يتناسب مع الجو العام للمقطوعة ذات الألوان الزاهية، والكؤوس العتيقة والوقت الهادئ المؤنس الذي يضيف إلى السرور سرورا.

٦- ومن مشاهده الخمرية قوله:(٨٢)

اصرف شرابي قد صرفت كؤوسه شهر الصيام واعفني من مائه

(٨١) انظر ديوانه ص٣٤٣ هامش ٣.

(٨٢) ديوانه ص٢٠.

فـــــأراق مـــــن إبريقـــــه لي شـــــربة كالنـــــار تشـــــرق في دجـــــى ظلمائـــــه

وهـــــلال شـــــوال يلـــــوح ضـــــياؤه وبنـــــات نعـــــش وقفـــــت بإزائـــــه(٨٣)

كبناتـــــه مـــــن مخلـــــص لمـــــا بـــــدا وجـــــه الـــــوزير دعـــــا بطـــــول حياتـــــه

في هذه المقطوعة يخاطب الساقي، ويطلب منه أن يبدأ بصرف حصته المعهودة من الشراب فقد هجرها فترة شهر الصيام، وقوله: "واعفني من مائه" أي: لا تعاطني إلا خمرا أصيلة، واعفني من الخمر التي يكثر ماؤها ويقل أثرها وقد أجابه الساقي إلى طلبه.

فـــــأراق مـــــن إبريقـــــه لي شـــــربة كالنـــــار تشـــــرق في دجـــــى ظلمائـــــه

فقد شبه الخمر بالنار في لونها الأصفر الذي يميل إلى الحمرة وهو تشبيه مفرد محسوس مغرق في الحسية إذ يدرك بحاسة اللمس والبصر والذوق والشبه.

ولسروره بذهاب شهر الصيام، وظهور هلال شوال، شبه هيئة هلال شوال في نوره وتألقه واحدا فردا، وحوله الكواكب السبعة التي يطلق عليها بنات نعش- وسميت بذلك لأنها أربعة منها نعش لأنها مربعة، وثلاث بنات نعش- بهيئة ظهور وجه الوزير، وحوله أناس مخلصون يشيرون له بالتحية، ويرفعون أيديهم عالية تظهر منها أصابعهم، وهم يدعون له بطول البقاء، وهو تشبيه مركب يصح أن

(٨٣) بنات نعش: سبعة كواكب أربعة منها نعش لأنها مربعة، وثلاث بنات نعش. . . وقيل: شبهت بحملة النعش في تربيعها- اللسان مادة نعش ٦/ ٤٤٧٤.

يقابل أجزاؤه، فيقابل هلال شوال بوجه الوزير، وبنات نعش ببنان المخلص وهو يشير بالتحية والدعاء للوزير بطول البقاء.

والمشبه والمشبه به صورتان واقعيتان لكن مقدرة ابن المعتز الفنية تمثلت في بداعة المقابلة بينهما وحسن التأليف بين الطرفين حتى اقتنع المخاطب بهذه الصورة وقبل تلك التحوير والتدوير الفني.

واللون الذي يشيع في المقطوعة، هو اللون الأصفر، الذي يميل إلى الحمرة المتمثل في قوله "كالنار" وتلمحه في قوله "كؤوسه" لأنها تحمل الخمر بداخلها، كما تلمح اللون المضيء المشرق في قوله "وهلال شوال"، "ووجه الوزير".

٧- ومن مشاهده الخمرية قوله:[٨٤]

وراح تلقيت الصبوح بكأسها ... وقد سار جيش الصبح في الظلمات

وناديت يحيي فاستجاب وطالما ... كسا جسمها من فضة حلقات

سلافة كرم فجرت في عروشها ... جداول ماء، من خليج فرات

فلما تدلت كالثدي وأصبحت ... على القصب المعروش منبعثات

أضيف إلى قارية خزفية ... مصبغة بالطين معتجرات

---

(٨٤) ديوانه ص١١١.

هذه الأبيات من مقطوعة بلغت تسع أبيات يتحدث فيا عن اصطحابه بالخمر ويحدد وقت الشراب كعادته قبل الفجر: "وقد سار جيش الصبح في الظلمات" بهذه الاستعارة إذ جعل للصبح سيرا وجيشا وهي تدل على محو الصبح بقوة نوره وشدة ضيائه للظلام، ثم يذكر نداء الساقي واستجابته، ثم جعل جسمها حلقات من فضة وهو لون فقاعات الكأس، ثم يذكر أن العنب المصنوع منه الخمر كان يسقى بماء وفير وهو دائما في ري "فجرت في عروشها جداول ماء من خليج فرات" وهذا يدل على جودته بحسن تعهده ثم يشبه حبات العنب بعد نضجها واستوائها بأنها "كالثدي" وهذا التشبيه هو الذي حدا بي لإثبات هذا النموذج فمثل هذه التشبيهات تعد ظاهرة في شعره في غرض الخمر والغزل حيث أخذت المرأة حيزا كبيرا في شعره فانشغل بها لهوا وحبا وعشقا فانعكست في تشبيهاته فكانت المرأة محور كثير من تشبيهاته فهو يشبه شجر السدر بقدود الجواري "تمايلن في أزر خضر" كناية عن جمالهن يقول:(٨٥)

لـــدى نـــرجس غـــض وســـدر كأنـــه قـــدود جـــوار ملـــن في أزر خضـــر

يقصد في الدقة والاستقامة واللون، فالجواري اللائي تحلين بالأزر الخضر دلالة على أنهن بلغن من الجمال مبلغا، لأن اللون الأخضر أجمل الألوان وأبدعها ولذلك كان لباس أهل الجنة "**عَالِيَهُمْ ثِيَابُ**

(٨٥) ديوانه ص٢٣٥.

سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ"(٨٦) يقول ابن كثير(٨٧): أي لباس أهل الجنة فيها الحرير ومنه سندس وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوه مما يلي أبدانهم، والاستبرق منه، ما فيه بريق ولمعان وهو ما يلي الظاهر كما هو المعهود في اللباس. . . ".

وهو رمز الصحة والعافية والقوة والغنى والثراء، وهو رمز الخير والرخاء والسرور ورمز النمو والخصوبة والأمل واللون الأخضر من الألوان الثرية الدسمة في عالم الأزياء، وتستخدم في إضفاء مسحة من الحسن والجمال على مرتديها من خلال الخطوط والتصميمات الفنية المبتكرة. (٨٨)

ويشبه النجوم بحدق الملاح في قوله:(٨٩)

وأسفر بعد ذلك عن سماء كأن نجومها حدق الملاح

ويشبه تمنع الساقي وبخله بيتيم رأى مرضعة يقول:(٩٠)

ويحثني بالكأس سا ق لحظ مقلته سقيم

أغرى بقبلته كما أغرى بمرضعة يتيم

(٨٦) سورة الإنسان الآية ٢١.

(٨٧) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٥٨، بدون.

(٨٨) راجع الرسم بالألوان في القرآن ص١٨٤، ١٨٦.

(٨٩) ديوانه ص١٣٧.

(٩٠) ديوانه ص٤٠٥.

ويشبه الدنيا في وقت الربيع واستعدادها للإنبات بالنساء تبرجت لزناة يقول:(٩١)

وانظـــــر إلى دنيـــــا ربيـــــع أقبلـــــت مثـــــل النســـــاء تبرجـــــت لـــــزناة

حيث التهيؤ والاستعداد في كل.

ويشبه الناي بطفل زنجي زنت به المغنية يقول:(٩٢)

وذات ناي مشـــــــــرق وجههـــــــــا معشـــــــوقة الألحـــــــاظ والغـــــــنج

كأنمـــــا تلـــــثم طفـــــلا لهـــــا زنـــــت بـــــه مـــــن ولـــــد الـــــزنج

ولا بأس بتشبيه شجر السدر بقدود الجواري، والنجوم بحدق الملاح والحبيب المتمنع من القبلة بمرضعة أغرت يتيما بالرضاع، فهي تشبيهات حسنة جيدة أحكم فيها وجه الشبه، وجاءت الألفاظ حسنة الوقع جيدة النغم استقبلتها المشاعر وتقبلتها الأحاسيس، وإنما البأس والمؤاخذة في تشبيهه الربيع بنساء تعرضت لزناة، وتشبيه الناي في يد المغنية بطفل زنت به من ولد العجم، فلفظه "زنت" لا تقبلها الطباع السوية، ولا ترتضيها المشاعر الأبية؛ إذ تحدث نفرة وجفوة، وقد رفض الإمام عبد القاهر الجرجاني(٩٣) لفظة "زنت" في بيت لابن المعتز مع أن استعمالها كان مجازا يقول:(٩٤)

---

(٩١) ديوانه ص١١٣.

(٩٢) ديوانه ص١٣٥.

(٩٣) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهرة الجرجاني ص ٣٠٠.

(٩٤) لم أجده في ديوانه.

إن زنـــــت عينـــــه بغـــــيرك فاضربـــــ ـــــها بطـــــول الســـــهاد والـــــدمع حـــــدا

يقول: ". . . ولفظ "زنت" وإن كان ما يتلوها من إحكام الصنعة يحسنها وورودها في الخبر "العين تزني" يؤنس بها، فليست تدع ما هو حكمها من إدخال نفرة في النفس" فرآها نابية تحدث نفرة في النفس في مثل هذا السياق مع أنها في كلام للرسول (صلى الله عليه وسلم)- أحدثت أريحية.

وفي البيت الأخير يصف المكان الذي فيه الخمر، فهو في قارورة خزفية التف حولها الطين من كل جانب، وهذا كناية عن شدة حفظها.

وقد لون هذه المقطوعة بلون الصبح بضيائه وإشراقه والظلام بسواده في قوله: "وقد سار حين الصبح في الظلمات" واللون الفضي البراق لفقاعات الخمر في قوله: "كسا جسمها من فضة حلقات، ثم اللون الأصفر لحبات العنب وتشبيهها بالثدي في الشكل واللون أيضا، ثم اللون الأسود في قوله: "قارية خزفية مصبغة بالطين، وهي ألوان سبق أن ذكرها في الخمر وفقاعاته، والكأس وتصاويره وألوانه، ولكنها تآزرت على رسم المشهد وإبهار الصورة.

المبحث الثاني

ابن المعتز يلون صوره بألفاظ دالة على الألوان دون ذكر اللون صراحة

وكما كان ابن المعتز يكثر من ذكر الألوان في تشبيهاته، كما مر، كذلك كان يكثر من ذكر الألفاظ التي تدل على الألوان كقوله[٩٥] يصف ديار المحبوبة بعد رحيلها.

عفـــا غـــير ســـفع مـــاثلات كأنهـــا خـــدود عـــذارى مســـهن شـــحوب

في اللسان: "السفعة والسفع: السواد والشحوب. وقيل: نوع من السواد ليس بالكثير، وقيل: السواد مع لون آخر، وقيل: السواد المشرب بحمرة. . . والسفعة ما في دمنة الدار من زبل أو رمل أو رماد أو رماد أو قمام ملتبد تراه مخالفا للون الأرض، وقيل: السفعة: من آثار الدار ما خالف من سوادها سائر لون الأرض". [٩٦]

وسواء أكانت السفع سوادا فقط أم سوادا مع لون آخر، فهي لفظة تدل على لون وقد شبه ابن المعتز بقايا المتهدمة، وقطعه المتناثرة هنا وهناك، بخدود عذارى مسهن شحوب، بجامع الهلكة والإنمحاء في كل، وهذا اللفظ وما يحمله من لون السواد يشيع جو الحسرة والكآبة والحزن على الماضي الفائت من ديار المحبوبة المتهدمة وما علاها من شحوب وما مسها من ضعف ووهن.

---

(٩٥) الديوان ص٤٧.

(٩٦) مادة سفع ٣/ ٢٠٢٧.

ولكن هل يشفع لابن المعتز أن يشبه السفع الماثل من ديار المحبوبة، بخدود عذارى، حتى وإن كان مسها الشحوب؟ وهل لفظ "الخدود" وما يشعه من إمتاع ومؤانسة، ولفظ "عذارى" وما تدل عليه من مفاتن وجمال، تدمغه لفظة "شحوب" وتطمس مواطن الجمال والفتنة فيه؟ أو أن خدود العذارى وإن شحبت، وأحسادهن وإن نضبت، يبقى فيها من الأنس والجمال، ومن المفاتن والدلال، ما يجعل التشبيه معيبا، والاختيار غير مصيب؟! إن منظر الربع العافي المتهدم، والجو الكئيب الذي يشعه هذا المشهد قد لا يتناسب مع خدود العذارى، حتى وإن كان الشحوب مسها، والضعف لفها، لكن غرام ابن المعتز بالغزل وهيامه بالنساء، وتربعهن على عرش قلبه، جعله يتسلى بذكر خدود العذارى ويوجد ملاءمة ومناسبة بينها وبين الربع المتهدم، فقد كانت المحبوبة تعيش فيه أيام أن كان مرتفع البنيان، مؤنس الخلان، وقد كانت هي فيه كثيرة الدل، مكتنزة اللحم، بارعة الجمال، أما وقد تهدم الدار ولم يبق فيه إلا السفع، فكذلك مر على سكانيه الدهر فعلاهم الشحوب، وكساهم الهم والضعف والنحول، وما أجمل هذا الائتلاف، وما أروع المناسبة الخفية بينهما.

وفي قوله:[٩٧]

وقمريـــــة الأصـــــوات حمـــــر ثيابهـــــا تهـين ثيـاب الوشـي جـرا وتسـحابا[٩٨]

([٩٧]) ديوانه ص٣٨.

([٩٨]) القمرية ضرب من الحمام- اللسان مادة قمر ٥/ ٣٧٣٧.

وتلقـــــط يمناهـــــا إذا ضـــــربت بـــــه وتنشـــر يســـراها علـــى العـــود عنـــابا

يصف مغنية بجمال الصوت بقوله "وقمرية الأصوات" والقمرية ضرب من الحمام، والحمام مشهور بجمال صوته وحسن زجله وطربه، ثم يصفها بسرعة حركات أناملها ومهارتها في ضرب العود في قوله: "وتلقط يمناها إذا ضربت به" والهاء في "به" تعود على العود فقد سبق في قوله:

كـــــأن يديـــــه تلعبـــــان بعـــــوده إذا مـــا تغـــنى أنهـــض الـــنفس إطـــرابا

ثم يصف جمال أناملها ويشبهها بالعناب في قوله: "وتنثر يسراها على العود عنابا" والعناب، ثمر أحمر اللون[٩٩]، وقد شبه أنامل يدها اليسرى وهي تضرب على العود بهذا الثمر الأحمر وما يثيره من متعة وجمال وهو يتآذر مع بقية عناصر الأسلوب في إبراز جمال المغنية.

ويذكر "الدعج" وهو السواد، وقيل: شدة السواد، وقيل: شدة سواد سواد العين، وشدة بياض بياضها، وقيل: شدة بياضها مع سعتها[١٠٠] "واللجين" وهو الفضة[١٠١] "والسبج" وهو خرز أسود[١٠٢] في قوله:[١٠٣]

---

(٩٩) اللسان مادة عنب ٤/ ٣١١٩.

(١٠٠) اللسان مادة دعج ٢/ ١٣٧٨.

(١٠١) اللسان مادة لجن ٥/ ٤٠٢.

(١٠٢) اللسان مادة سبج ٥/ ١٩١٣.

(١٠٣) ديوانه ص١٣٦.

ألا فاســـــــقياني قهـــــــوة ذهبيـــــــة فقـد ألـبس الآفـاق جـنح الـدجى دعـج

كـــــأن الثـــــريا والظـــــلام يحفهـــــا فصـــوص لجـــين قـــد أحـــاط بـــه ســـبج

فهو يطلب من الساقي أن يسقيه الخمر ويطلق عليها: "قهوة ذهبية" في السحر: "فقد ألبس الآفاق جنح الدجى دعج" ثم يشبه هيئة الثريا المنيرة وقد لفت بظلام الليل بهيئة فصوص من فضة بيضاء قد أحاط بها خرز أسود، وهو بهذا التشبيه يؤكد قوله: "فقد ألبس الآفاق جنح الدجى دعج، والتشبيه مركب حسي بالغ الدقة والتصوير، فقد جعل الدعج ثوبا يلف جنح الدجى ويكسوه، ولما كان الدعج اختلاط البياض والسواد ناسب أن يكون ثوبا يلف الآفاق ويصبغه بلونه، وقد عبر بـ "جنح الدجى" ولم يعبر بالدجى، لأن الليل قد ذهب أكثره، واستحال الظلام ضياء، ولذلك عبر بكلمة "يحفها" في قوله: "كأن الثريا والظلام يحفها" ولم يعبر بلفظ "يلفها" مثلا مع الإنفاق في الوزن، لأن في كلمة يحفها معنى القلة والضيق(١٠٤) وهو يناسب مقدار الظلام في هذا الوقت، أما "يلفها" ففيها معنى الشمول والإحاطة، وفي جانب المشبه به اختار التعبير بكلمة "أحاط" التي تدل على الإحاطة والشمول في قوله: "فصوص لجين قد أحاط به سبج" لأنه يريد أن يثبت إحاطة السواد للفضة، حتى تقترب صورة المشبه به من المشبه.

(١٠٤) لسان العرب مادة خفف ٢/ ٩٣٠.

وقد لون مشهده باللون الأسود الدال على الظلام والأبيض الدال على انبلاج الصبح وانكشاف ضوئه، ولم يذكر الألوان، وإنما ذكر ألفاظا تدل عليها.

والصورة بهجة زاهية، واللون من عناصر بنائها، فهو يطلب قهوة ذهبية في هذا الوقت، العليل هواؤه، الهادئة نسمائه الذي هو من أوقات الجنة لكن ابن المعتز جعله من أوقات الهوى واللهو.

وفي قوله:(١٠٥)

ويخجل إذ يلاقيني كأني أنقط خده بالجلنار

يصف خجل الساقي واحمرار خده كأنه نقط خده بالجلنار وهو زهر الرمان، وهي صورة مخترعة إذ الخجول يعتري وجهه الاحمرار من شدة الحياء والسرور فاهتدى ابن المعتز إلى هذه الصورة الحسية التي ترسم صورة الخجل للساقي واضحة ليقابل صورة حسية بأخرى مثلها، وهو تشبيه مفرد حسي يظلله اللون الأحمر الذي يعلو الخد من الخجل كما هو لون الجلنار.

وفي قوله:(١٠٦)

وليلة من حسنات الدهر ما ينمحي موضعها من ذكري

(١٠٥) ديوانه ص٢٣٠.

(١٠٦) ديوانه ص٢٣٤.

ولـــــيس تســـــلوها بنـــــات صـــــدري ســـــريت فيهـــــا بخيـــــول شـــــقر

ســـــياطها مـــــاء الســـــحاب الغـــــر كأنـــــــه ذوب لجـــــــين يجـــــــري

فقد ذكر في هذه الأبيات ثلاثة ألفاظ تدل على ألوان، وكلها تقع في أسلوب تشبيه هي "شقر"، "الغر"، "لجين" ففي قوله: "سريت فيها بخيول شقر" يقصد الكؤوس التي طغى عليها اللون الأحمر حتى أشبهت الخيول الشقر ففي اللسان(١٠٧) "الأشقر من الدواب الأحمر في مغرة حمرة صافية" وقد رشح التشبيه بقوله: "سريت" لأنه مما يناسب المشبه به وهو الخيول الشقر، وتشبيه الكؤوس بالخيول الشقر لعله يرمز بها إلى شجاعته وكثرة غشيانه الحروب، فكما كان مغرما بالخمر والنساء، أغرم بشجاعته وقوته واعتزازه بنفسه. (١٠٨)

والتشبيه في قوله: "سريت فيها بخيول شقر" حسي مفرد بمفرد مقيد حيث قيد الخيول بأنها شقر ليتحد الشبه، ويناسب ويلائم بين لون الفرس الأشقر ولون الأفق في هذا الوقت.

والكلمة الثانية "الغر" في قوله: "سياطها ماء السحاب الغر" والغر:(١٠٩) هو الأبيض من كل شيء، وسياطها مفرد السوط(١١٠) وهو خلط الشيء بعضه على بعض، فقد شبه الماء الذي خلطت به

(١٠٧) مادة شقر ٤/ ٢٢٩٧.

(١٠٨) انظر على سبيل المثال الديوان ص٢٤٣.

(١٠٩) اللسان مادة غرر ٥/ ٣٢٣٤.

الخمر في صفائه ونقائه بأنه ماء السحاب ثم قيده بقوله: "الغر" ليدل على أنه محمل بالماء النقي الصافي الأبيض، ثم اتبعه بهذا التشبيه "كأنه ذوب لجين يجري" فشبه ماء السحاب الغر يذوب اللجين(١١١) وهو الفضة ولونها أبيض معروف، وقد أوغل(١١٢) ابن المعتز في التشبيهات الثلاثة ففي التشبيه الأول: سربت فيها بخيول شقر، تم المعنى عند قوله: سربت فيها بخيول ثم أضاف كلمة "شقر" وفي الثاني سياطها ماء السحاب الغر، تم المعنى عند قوله: سياطها ماء السحاب ثم زاد كلمة "الغر" وفي الثالث: كأنه ذوب لجين يجري، تم المعنى عند قوله: كأنه ذوب لجين ثم زاد كلمة يجري، والسر في الإيغال في التشبيهات الثلاثة لتزداد الملاءمة بين المشبه والمشبه به في وجه الشبه.

ففي التشبيه الأول وهو تشبيه الكؤوس بالخيول جاءت كلمة "شقر" لتضيف اللون إلى وجه الشبه، وفي الثاني: وجه الشبه، الصفاء والنقاء فجاءت كلمة "الغر" لتضيف معنى زائدا وهو البياض، وفي الثالث وجه الشبه البريق واللمعان فجاءت كلمة "يجري" لتضيف معنى السيلان والجري في الوجه ليناسب سلسال الخمر.

---

(١١٠) اللسان مادة سوط ٣/ ٢١٥٠.

(١١١) اللسان مادة لجن ٥/ ٤٠٠٢.

(١١٢) الإيغال هو: ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها. انظر الإتقان للسيوطي ٢/ ١٨٧، تحقيق أحمد بن علي- دار الحديث القاهرة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، وتحرير التحبير لابن لأبي الأصبع تحقيق الدكتور حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

وقد ظلل صورته باللون الأحمر في تشبيهه الخمر بالخيول الشقر والأبيض في تشبيهه الماء الذي مزجت به الخمر بماء السحاب الغر وبذوب لجين يجري، وهو لون الخمر الدائم الذي لا يفتأ يرددها.

– ويشبه الخمر بالورس وهو نبات أحمر كالسمسم(١١٣) في قوله:(١١٤)

يا حسن أحمد غاديا أمس بمدامة صفراء كالورس

والصبح حي في مشارقه والليل يلفظ آخر النفس

فكأن كفيه تقسم في أقداحنا قطعا من الشمس

فقد شبه الخمر بالورس في لونه الأصفر كما شبه الكؤوس التي تحوي الخمر بقطع من الشمس، ويلحظ فيه اللون الأصفر المختلط بحمرة وهو لون الشمس، ولم يذكر اللون وإنما ذكر اللفظ الذي يدل عليه، والتشبيه فيه خيال وإعمال عقل فقد تخيل أن ما يصب من الكأس ليس خمرا وإنما هو قطع من الشمس يقسمها الساقي على الشرب المدمنين.

وفي قوله:(١١٥)

كأنني ساورتني يوم بينهم رقشاء مجدولة في لونها برق

(١١٣) اللسان مادة ورس ٦/ ٤٨١٢.

(١١٤) ديوانه ص٢٧٠.

(١١٥) ديوانه ص٣٣٠.

فهو يصف حاله يوم فراق الأحبة، وما يعتصره من الألم والحزن، فيشبه نفسه كأنه لسعته حية شديدة قوية "رقشاء" وهي صفة للحية التي تكون منقطة بسواد وبياض. (١١٦)

وكذا قوله: "في لونها برق" ففي اللسان(١١٧) وتيس أبرق فيه سواد وبياض. . . وحبل أبرق فيه لونان من سواد وبياض "ولا أدري لماذا أعاد كلمة برق وهي بمعنى رقشاء، هل لأنه يقصد أن يعظم من أمر الحية التي لسعته، وكادت أن تودي به فوصفها بأنها "رقشاء" "في لونها برق" تأكيدا وتقوية للمعنى أو أن قوله: "في لونها برق" جاء ليتمم به البيت ويقيم به الوزن، فيكون قد وقع في مؤاخذة فنية إذا الحشو من عيوب الشعر والشاعر؟!

وهذا التشبيه يشبه قول الحطيئة:(١١٨)

كـــــأني ســـــاورتني ذات ســـــم نقيـــــع لا تلائمهـــــا رقاهـــــا

فهو يشبه حالته يوم فراق الأحبة بحال من لسعته حية ذات سم كثير قد يجمعته حتى إن الرقي لا تنفع فيه. وقد زاد الحطيئة على ابن المعتز أن الرقية لا تنفع فيمن هذه الحالة، لكنه لم يضمن بيته معنى البين، كما فعل ابن المعتز في قوله "يوم بينهم" واتفقا في وصف هذه الحية بأن سمها كثير تهلك من تلدغه

(١١٦) اللسان مادة رقش ٣/ ١٧٠٣.

(١١٧) مادة برق ١/ ٢٦٢.

(١١٨) ديوان الحطيئة ص٦٤، شرح أبي سعد السكري- دار صادر بيروت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

فابن المعتز يصفها بقوله "رقشاء مجدولة في لونها برق"، والحطيئة يصفها بقوله: "وذات سم نقيع لا تلائمها الرقي" وهذا كناية عن قوتها وخطرها.

وديوان ابن المعتز كما امتلأ بالتشبيهات الملونة امتلأ بالتشبيهات التي حوت ألفاظا تدل على لون أو أكثر.

المبحث الثالث

درجات الألوان في تشبيهات ابن المعتز

كما كان ابن المعتز يذكر الألوان صراحة في تشبيهاته، ويذكر الألفاظ التي تدل على الألوان، كذلك كان يذكر كثيرا من درجات الألوان في تشبيهاته، وهذا يدل على خبرته الواسعة عن الألوان وكيفية تركيبها ودرجاتها: "إن حسن الألوان لابد أن تكون صفة من الصفات الموقوفة على الفنان، فله كيفية خاصة في رؤية وتصور الفروق والدرجات اللونية وهو جانب أساسي من خيال الفنان وقدرته على الابتكار"(١١٩).

وابن المعتز يذكر اللون الأسود ويصفه بأنه حالك، والحلوك: يقال: للأسود شديد السواد(١٢٠)، ويجانس بينه وبين كالح، والكلوح هو: بدو الأسنان عند العبوس(١٢١) يقول:(١٢٢)

أفي رد كأس الخمر عني فلا خمرا عقاربها دبت علي ولا وزرا

وبدلت منها بعد بيضاء غضة بأسود لون كالح حالك مرا

(١١٩) الرسم بالألوان في القرآن د/ أحمد رأفت علي عبد المنعم ص١٢٠ سابق.

(١٢٠) اللسان مادة حلك ٢/ ٩٧١.

(١٢١) اللسان مادة كلح ٥/ ٣٩١٤.

(١٢٢) ديوانه ص٢٣٧.

كـــأن النـــدامى حـــين كظـــوا بشـــربة محـــابر وراقـــين قـــد ملئـــت حـــبرا

والاستفهام في قوله: "أفي رد كأس الخمر. . . " يحمل معنى التحسر والتأسف على كبر سنه وضياع شبابه وقوته وهما وقت الشرب واللذة وارتكاب الذنوب، وقوله: "بيضاء غضة" كناية عن أصالة الخمر وإشراقها، وقوله: "بأسود لون" كناية عن شيخوخته وضياع قوته، وانتهاء شبابه وتبدل وسامته وجماله، ثم يشبه هيئة الندامى الذين تعاطوا الخمر وازدادوا شربا "كظوا بشربه" بمحابر وراقين قد ملئت حبرا، وربما قصد من وراء هذا التشبيه، كما أنه لا قيمة لوراق محبرته فارغة فلا قيمة لنديم بطنه لم تمتلئ خمرا، وهو تشبيه مركب لا يجوز مقابلة أجزائه، فإن صح مقابلة الخمر بالحبر فلا يصح مقابلة الندامى بالمحابر، وقد أثار اللون الأسود هنا معاني الحزن والتشاؤم والتحسر على الماضي كما ساعدت مفردات الأساليب على ذلك مثل "كالح حالك مرا".

وفي قوله:(١٢٣)

كـــأن أرواح أهـــل العشـــق ســـائرة إلى جمالـــك بالتقريـــب والعنـــق

تـــؤم كعبـــة حســـن خالهـــا حجـــر في الخـــد أســـوده في أبـــيض يقـــق

(١٢٣) ديوانه ص٣٤٦.

يتغزل في محبوبته، ويجعل أرواح أهل العشق تقصد إلى جمالها، وتمشي إليه بسرعة وجعلها كعبة حسن على التشبيه، ثم جعل خالها وهو نكتة سوداء في البدن، وحدد موطنه بأنه في الخد، ثم وصف الخد بأنه "أبيض يقق" واليقق: شدة البياض. (١٢٤)

وما ذكره ابن المعتز، ليس مما توصف به المحبوبة العزيزة على قلب المحب، فهو دائما ما يغار عليها، ولا يرغب في سماع الآخرين لأوصافها، ويضن بذلك ولا يجعل أرواح أهل العشق تسير إلى جمالها كما قال، ثم جعلها كعبة حسن، وكأنها مشاع لكل قاصد، وبغية كل عاشق، وهذا ما لا ترتضيه نفس العاشق الأبية، ولا روحه السوية إلا إذا كانت الخمر قد عملت فيه عملها، فأصبح يرى النور ظلاما، والحقائق الجلية تخليطا وأوهاما، وقد رفض أبو نواس مبدأ الشركة في الحب ولم يقبل سوى الشركة في الكأس فقال:(١٢٥)

لا حبذا الشركة في حبها وحبذا الشركة في الكأس

وقد وصف بعض الباحثين(١٢٦) بيت ابن المعتز بأن فيه تكلف كبير ما كان أغناه عنه، والمهم أنه أراد أن يبالغ في جمال محبوبته، وشدة بياض خدها، فلم يكتف بوصفه بالبياض، إنما ذكر درجته

(١٢٤) اللسان مادة يفق ٦/ ٤٩٦٤.

(١٢٥) ديوان أبي نواس ص٣١٢.

(١٢٦) الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان ص١٦٢.

بذكر كلمة "يقق" وهذا الوصف يساعد في إبراز جمال محبوبته، خصوصا أنه ذكر سواد خالها في نصاعة بياض خدها، فكان لذلك الوصف بالغ الأثر النفسي على المخاطب.

ويصف إبله بأنها ملء الفضاء، وهي قادرة على أن ترحل حيث رحلت حبيبته أم مالك فيقول:(١٢٧)

لنا إبل ملء الفضاء كأنما حملن التلاع الحو فوق الحوارك(١٢٨)

يصف إبله بأنها ملء الفضاء كناية عن كثرتها كأنها من كثرتها قد حملن على كواهلها أرضا واسعة قد ملئت زرعا لونه أسود من شدة خضرته ففي اللسان(١٢٩) من معاني "الحو" الأسود من الخضرة، فقوله: "الحو" يعبر عن درجة من درجات الألوان، واللون الأخضر لون الخصب والنماء والنعيم والزمرد والزبرجد وهو قرين الشجر لون الحياة والتجدد وهو مرتبط بالحقول والحدائق ولذا فهو مرتبط بهدوء الأعصاب(١٣٠)، وهذه الرمزيات والمعاني مناسبة لسياق القصيدة فالشاعر يفخر بقوته وشجاعته ويعدد سجاياه ومناقبه وفيها يقول:

---

(١٢٧) ديوانه ص٣٤٨.

(١٢٨) التلاع: ما انحبط من الأرض، وقيل ما ارتفع وهو من الأضداد، وقيل التلعة مثل الرحبة، والجمع من كل ذلك تلع وتلاع، اللسان مادة تلع ١/ ٤٤٠، الحوارك: الحارك: الكاهل اللسان مادة حرك ٢/ ٨٤٤.

(١٢٩) مادة حوو ٢/ ١٠٦١.

(١٣٠) انظر: موسوعة أساطير العرب عند الجاهلية ودلالاتها د/ محمد عجينة ١/ ٢٩١- ٢/ ٢٠٠ ط أولى بيروت دار الفارابي ١٩٨٤م.

أقمـــت لهـــم ســـوق الجـــلاد بمنصـــلي وعلمـــتهم طعـــن الكلـــى بالنيـــازك[١٣١]

وغالب شواهد ابن المعتز في درجات الألوان كانت في غير موضوع التشبيهات الخمرية أو الغزلية، وفيما عرضته غنية ودليل.

وانظر: اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي ص٢٣ للباحثة: أمل محمود عبد القادر أبو عون- رسالة ماجستير من قسم اللغة العربية- جامعة النجاح الوطنية نابلس- فلسطين ٢٠٠٣م.

(١٣١) النيازك: الواحد نزك الرمح القصير. اللسان مادة نزك ٦/ ٤٣٩٨.

الفصل الثاني

الدلالة النفسية للألوان في التشبيهات

الواردة في الغزل

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول: الدلالات النفسية للألوان في التشبيهات الواردة في الغزل.**
- **المبحث الثاني: اللون يستعمل في المعنى وضده.**
- **المبحث الثالث: فجوات فنية وأسلوبية في بعض تشبيهات ابن المعتز**

المبحث الأول

الدلالة النفسية للألوان في تشبيهات ابن المعتز في الغزل

سبق القول أن غرضي الخمر والغزل، استغرقا ديوان ابن المعتز إلا قليلا وفي الغزل تعددت الصور، وتلونت المشاهد كما في الخمر.

ولكثرة ولع ابن المعتز بالخمر والغزل أحسست أنه ولع فني رآه طريقا للقدماء فمشى على نهجة، وسل فيه سيفه، من غير أن يكون له صويحبات، أو هي أسماء مخترعة وشخصيات وهمية ليبثها نجواه، ويحادثها بشجونه، وأنت ترى له في كثير من مواطن الديوان التفاتا إلى الدار الآخرة، وتذكيرا بالله وخوفا منه يقول:(١٣٢)

كم قد خلوت بها وثالثنا التقى يحمى على العطشان برد المورد

ويقول:(١٣٣)

ولم آت ما حرم الله في الهوى ولم أترك مما عفا الله باقيا

(١٣٢) ديوانه ص١٥٩.

(١٣٣) ديوانه ص٤٦٩.

ويؤكد هذا أن قصيدته قصيدة الجاهليين، يبدأها بالغزل مثلهم، فقد يتعاطى الشاعر الغزل وهو شريف عفيف، وهذه قضية نقدية معروفة، فجرير العفيف الشريف أرق غزلا وأسلس عبارة من الفرزدق، الماجن زئر النساء الذي لا يحسن الغزل. (١٣٤)

وأيضا فلعل ولع ابن المعتز بالخمر والغزل كان تسلية لنفسه عن أحداث جسام وقعت له، وعن عداوات وإحن بينه وبين بني عمه، الذي أطلق عليهم: "بنو الغم والأذى" وهذا مثبوت في تضاعيف ديوانه، ومن ذلك قصيدته التي يخاطب فيها محبوبته شريرة، وقد رحلت، لكنه يحادثها، ويبثها كوامن قلبه يقول:(١٣٥)

عجبت شريرة إذ رأتني شاحبا ... باشر: قد قلب الزمان وحالا

باشر: قد حملت بعدك كربة ... وهموم وأشغال على ثقالا

وفساد قوم قد تمزق ودهم ... فعلا وضاعوا من يدي ضلالا

ما تطمئن نفوسهم من نفرة ... قطعت وسائل خلة وحبالا

قوم هم كدر الحياة وسقمها ... عرض البلاء بهم علي وطالا

(١٣٤) راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٤٦٦ تحقيق أحمد محمد شاكر- دار المعارف.

(١٣٥) ديوانه ص٣٧٧.

أو كما يقول الدكتور خفاجي[١٣٦] في عهد الشباب، عكف ابن المعتز على حياة اللهو والترف، يخفف بهما آلامه، ويؤكد بهذه الحياة اللاهية لرجال السياسة، أنه بعيد عن السياسة ومؤامراتها ومطامعها البعيدة. . . فأمعن في وصف الراح وسماع الغناء، وفي الغزل والمجون، ويضيف: "ولا شك أن ابن المعتز ورث شيئا من اللهو عن أمه الرومية، وكان اللهو في القرن الثالث سمة النبل، ودليل الظرف والترف والذوق". [١٣٧]

والمهم أن ابن المعتز في غزلياته ظلل تشبيهاته بألوان تناسب الموقف، وتتناغم مع المشهد، وقد أضافت الألوان مع التشبيه مع عناصر الأسلوب الأخرى للمعنى الكثير من الوضوح والبيان، ولنأخذ في سوق النماذج.

يقول:[١٣٨]

ألا انتظروني ساعة عند أسماء وأترابها منهن برئي وأدوائي

ثنين الذيول وارتدين بسابغ كحيات رمل وانتقبن بحناء

وولين ما بالين من قد قتلنه بلا ترة تخشى ولا قتل أعدائي

---

(١٣٦) انظر ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان ص ٨٣.

(١٣٧) السابق ص ١١٦.

(١٣٨) ديوانه ص ٧.

رددت سهامي عنك بيضا وخضبت سهامك في قلب عميد وأحشاء

فلم أر مثل المنع أغرى لحاجة ولا مثل داء الحب أبرح من داء

والمقطوعة تتحدث عن "أسماء" وأترابها وجمالهن الأخاذ، ونسوة هذه صفتهن لا شك بلغن من الجمال مبلغا، وتحلين بحسن وافر، وظهرت عليهم آثار النعمة والزينة، التي من مكملات عناصرها، تجمع الألوان وتناسقها، وقد أدرك شاعرنا هذا، فرسم المشهد ملونا، وصوره بألوانه المتناسقة، فعند حديثه عن سترهن وعفافهن وأنهن لبسن ثيابا واسعة طويلة.

ثنين الذيول وارتدين بسابغ كحيات رمل وانتقبن بحناء

يختار من الألوان، لون الرمل، وهو يميل إلى الصفرة، ولون الحناء وهو برتقالي كاتم، وهو خضاب النساء، وفيه دلالة على ترفهن ونعيمهن، فيشبه النساء في سترهن وتخضبهن تحت هذه الثياب السميكة الواسعة الطويلة بحيات الرمل، فهي تحسن التخفي. فلون جسمها لون الرمل في صفرته فلا يتبين أحد مكانها أو يهتدي إليها، وفي إضافة الحياة إلى الرمل دليل على أنها أصبحت كجزء من الرمل لا تفارقه، أو هي حبة من حباته، فكذلك أسماء وأترابها لا يهتدي أحد إلى مواطن الفتنة والجمال فيهن بسبب ثيابهن السميكة الواسعة الطويلة التي لا تستطيع أن تفرق بين لون الثياب ولون أجساهدن، وهذا

ما يفهم من قوله: "ثنين الذيول وارتدين بسابغ" فهو كناية عن شدة التستر والتحشم ففي اللسان[١٣٩] ثنى الشيء ثنيا: رد بعضه على بعض، وأثناؤه ومثانيه: قواه وطاقاته"، كما أن قوله: "وانتقبن بحناء" أي: أن ألوان بشرتهن حمراء مشربة بسمرة كناية عن شدة جمالهن ففي اللسان[١٤٠] النقبة: اللون والوجه، قال ابن الأعرابي: فلان ميمون النقيبة والنقيمة، أي: اللون، ومنه سمي نقاب المرأة لأنه يستر نقابها أي لونها بلون النقاب".

وقد اختار الشاعر لهذا التشبيه لون الرمل وهو قريب الشبه من لون بشرة الإنسان الأشقر المشرب بحمرة وهذا اللون يعطي صاحبه مسحة من الجمال وقسطا وافرا من الحسن، وأضاف إليه لون الحناء البرتقالي وهو قريب من لون الرمل، والحناء تستعمله النساء للزينة وفي المناسبات السارة ومواطن البهجة والفرح، وفيه دلالة على ترفهن ونعيمهن، وقد كان هذا في ذهن الشاعر عندما عبر بقوله: "وانتقبن بحناء" فاختار الألوان الزاهية البهجة، التي تدخل السرور على النفس، وتبهج الرائي.

كما اختار اللون الأبيض الذي يدل على النقاء والوضوح، ويرمز للطهارة والنور عندما أخبر عن حسن معاملته لها في قوله: "رددت سهامي عنك بيضا" فهي كناية عن أنه اختار مهادنتها، والصبر على ما يصدر منها، فإساءتها نوع إحسان، والهجر والعصيان منها ظرف وتدلل وإكرام، وهذه عادة

---

(١٣٩) مادة ثنى ١/ ٥١١.

(١٤٠) مادة نقب ٦/ ٤٥١٤.

المحبين، وديدن أهل العشق المتيمين، وكانت هي تقابل هذه المعاملة بنظرات قوية، وسهام حادة صوبتها إلى قلب قد أضناه العشق، وسلاه الشوق: "وخضبت سهامك في قلب عميد وأحشاء" والخضاب: تغيير اللون بحمرة أو صفرة أو غيرهما. (١٤١)

واختيار "في" في قوله: "في قلب عميد وأحشاء" يعني أن سهام المحبوبة قد غرست في قلبه وأحشائه حتى جعلته لا يتماثل للشفاء، وقوله: "خضبت" يتضح منها لون الدم الأحمر، وهذا اللون من بين مدلولاته ورمزياته النفسية على الإنسان: "إنه رمز العواطف الثائرة، والحب الملتهب، والقوة الجارفة والنشاط المتقد، وهو رمز الدماء الحارة، ورمز النار المشتعلة"(١٤٢) وهذه المعاني تناسب سياق المقطوعة فالشاعر عواطفه ثائرة، ومشاعره متيمة بأسماء وأترابها وقد أثرن فيه بجمالهن حتى كانوا سببا لبرئه أو مرضه فاستعمال هذا اللون يعد عنصرا من عناصر الأداء الأسلوبي.

ومن بين قصائده قصيدة بلغت أربعا وعشرين بيتا لم يتحدث فيها سوى عن الغزل والخمر بدأها وأنهاها بالغزل، وتوسطها بحديث الخمر، وحتى لا تتقطع عراها، وتتسع فجوات التحليل، سنقسمها ثلاثة مشاهد، نحلل كل مشهد على حدة، يقول:(١٤٣)

---

(١٤١) اللسان مادة خضب ٢/ ١١٧٩.

(١٤٢) الرسم بالألوان في القرآن ص ١١٧٩.

(١٤٣) ديوانه ص ١٣.

١- أمكنت عاذلتي من صمت أباء ما زاده النهي شيئا غير إغراء

٢- أين التورع من قلب يهيم إلى حانات لهو غدا بالعود والناء

٣- وصوت فتانة التغريد ناظرة بعين ظبي تريد النوم حوراء

٤- جرت ذيول الثياب البيض حين مشت كالشمس مسبلة أذيالا لألاء

٥- وقرع ناقوس ديري على شرف مسبح في سواد الليل دعاء

*****

١- وكأس حبرية شكت بمبزلها أحشاء مشعلة بالقار جوفاء

٢- ترفوا الظلال بأغصان مهدلة سود العناقيد في خضراء لفاء

٣- أجرى الفرات إليها من سلاسله نهرا تمشي على جرعاء ميثاء

٤- وطاف يكلأها من كل قاطفة راع بعين، وقلب غير نساء

٥- موكل بالمساحي في جداولها حتى يدل عليها حية الماء

٦- فآب في آب يجنيها لعاصرها كأن كفيه قد علت بحناء

٧- فظل يركض فيها كل ذي أشر قاس على كبد العنقود وطاء

٨- ثم استقرت وعين الشمس تلحظها في بطن مختومة بالطين كلفاء

٩- حتى إذا برد الليل البهيم لها وبلها سحرا منه بأنداء

١٠- صب الخريف عليها ماء غادية أقامها فوق طين بعد رمضاء

١١- يسقيكها خنث الألحاظ ذو هيف كأن ألحاظه أفرقن من داء

١٢- على فراش من الورد الجني وما بدلت من نفحات الورد بالملاء

١٣- كأنه صب سلسال المزاج على سبيكة من بنات التبر صفراء

*****

١- يا صاح إن كنت لم تعلم فقد طرحت شرارة الحب في قلبي وأحشائي

٢- أما ترى البدر قد قام المحاق به من بعد إشراق أنوار وأضواء

٣- وقد عست شعرات في عوارضه تزري على عارضيه أي إزراء

٤- أعيت مناقشة إلا على ألم وكل يوم يغاديها بإخفاء

٥- فانظر زبرجد خد صار من سبج وصب دمعا عليه كل بكاء

٦- يا ليت إبليس خلاني لندبته ولم يصوب لألحاظي بأشياء

والقصيدة فيها رنة حزن خفية وأنة ألم عصية على الظهور، نفث عنه بألفاظها الظاهرة مرة والموحية أخرى، والألوان الدالة ثالثة، فمع أن القصيدة لم تحو إلا الغزل والخمر إلا أن أساليبها غير راقصة، وبهجة ألوانها تكمن فيها نعومة العيش الماضية فتحي فيه الألم وتهيج الذكرى، يبدأها بذكر الغزل والصمت والاستفهام الذي يفيد النفي "أين التورع" وكأنه يريد أن ينهى قلبه الذي يهيم إلى حانات اللهو، ويتسلى بالسماع والطرب، أن ينتهي عن صوت فتانة التغريد، ولكن لا طاقة له على ذلك، وقد وصف محبوبته بالحشمة والطهارة "جرت ذيول الثياب البيض" بعكس ما كان يصفها في مواطن أخرى إذ تشاركه اللثم، وتعاطيه الضم، وتناجيه الهوى. . . ويطنب في وصف الخمر وصنعتها ومكوناتها، وصفا يبدو فيه الرتابة، وكأنه يتحدث عن ذكرى مرت، وأحداث تولت، يذكرها بالألم والحسرة.

وقد حوت القصيدة ثلاثة مشاهد الأول: صورة محبوبته وجمالها، وقد استغرق الأبيات الخمسة الأولى، وقد ضم ثلاثة تشبيهات:

الأول في قوله:

وصـــــوت فتانـــــة التغريـــــد ناظـــــرة بعـــــين ظـــــبي تريـــــد النـــــوم حـــــوراء

والثاني في قوله:

جـرت ذيـول الثيـاب البـيض علـى مشـت كالشـــــــــمس مســـــــــبلة أذيال لألاء

والثالث في قوله:

وقـــرع ناقـــوس ديـــري علـــى شـــرف مســـــبح في ظـــــلام الليـــــل دعـــــاء

ففي البيت الأول يصف الفتاة التي لم يستطع أن يمنع قلبه عن التعلق والهيام بها بأنها: "فتانة التغريد" وهو وصف يوحي بجمال صوتها وعذوبة نغمته ففي اللسان(١٤٤) وغرد الإنسان: رفع صوته وطرب" فهي لجمال صوتها تفتن القلوب، وتستولي على الأفئدة، وتجعل من يسمع صوتها يتوله شوقا إليها، واختيار لفظ "فتانة" يدل على هذا المعنى من وجهين الأول. دلالة الكلمة ففي اللسان(١٤٥) والفتنة: إعجابك بالشيء، وأهل الحجاز يقولون: فتنته المرأة: إذا ولهته وأحبها" والثاني: هي صيغة مبالغة على وزن "فعاله" تدل على كثرة فتنتها وقوة تأثير صوتها على السامعين، وقوله: "ناظرة بعين ظبي" يريد وصف جمال عينيها فوصفها بعين ظبي، على التشبيه. أي: بعين كعين الظبي، لما عرف من جمال عيون الظباء، وهذه العيون الظبائية "تريد النوم" وهي صفة جمال ثالثة، لأنه شاع عند الشعراء، وصف العيون الجميلة بأنها عيون مريضة أو متكسرة أو ناعسة، وقد أكثر ابن المعتز من هذا الوصف، كقوله يصف الساقي في هذه القصيدة:

يســـقيكها خنـــث الألحـــاظ ذو هيـــف كـــــان ألحاظـــــه أفـــــرقن مـــــن داء

(١٤٤) مادة غرد ٥/ ٣٢٣٢.

(١٤٥) مادة فتن ٥/ ٣٣٤٤.

وقوله: "حوراء" صفة جمال رابعة، والحور: الأعين النقيات البياض الشديدات سواد الحدق(١٤٦)، فاستعمل هنا اللون الأبيض والأسود في وصف جمال عيني فتانة التغريد، ومع أنهما متناقضان إلا أنهما عند اجتماعهما يكونان غاية في الجمال، فعندما يريدون إظهار جمال المرأة يصفون عينيها بالحور، كما هنا ويصفون وجهها بالبياض وشعرها بالسواد.

وبعد أن وصف جمال صوتها، وحور عينيها أتبعه بوصف ثيابها في قوله:

جرت ذيول الثياب البيض حين مشت كالشمس مسبلة أذيال لألاء

وقد لون ثيابها بلونين الأول: اللون الأبيض في قوله: "جرت ذيول الثياب البيض" واللون الأبيض من معانيه: العفة والطهارة والصفاء والنقاء، وهو هنا كناية عن كل هذه المعاني، والجر يفهم منه معنى الطول وأن هذه الثياب سترت جميع جسدها وزادت إلى من لامست الأرض، وأكد المعنى بذكر كلمة "ذيول" وكلمة "البيض" فهذه الذيول لثياب بيضاء نقية، والثاني: اللون الأصفر الذهبي المائل إلى الحمرة في قوله: "كالشمس مسبلة أذيال لألاء" فقد شبه هيئة جر ذيول الثياب البيض حين مشت بهيئة الشمس وقد أرسلت أذيال الضياء والنور، والتشبيه يمكن أن يفرق، فتقابل المحبوبة بالشمس كما يقابل جر ذيول الثياب البيض بإرسال الشمس أشعتها وضيائها.

(١٤٦) اللسان مادة حور ٢/ ١٠٤٣.

وقد قابل ابن المعتز بين محبوبته والشمس لكنه مع محبوبته استعمل كلمة ذيول مضافة إلى الثياب"، "جرت ذيول الثياب. . . " وهو استعمال حقيقي وقابله في المشبه به بالاستعمال المجازي حيث أسند "الأذيال" إلى "لألاء" في قوله: "أذيال لألاء" ولعل الاستعمال الحقيقي في جانب محبوبته والمجازي في جانب الشمس يفهم منه: أن محبوبته ابتعدت عن التكلف والزينة المصطنعة، واستغنت بجمالها وارتدت الأصالة ثوبا لها.

وفي البيت ملمح آخر: فعندما عبر عن ذيول ثياب محبوبته استعمل جمع الكثرة "ذيول" على وزن "فعول" وعندما عبر عن أذيال الضياء المنبعثة من الشمس، استعمل جمع القلة "أذيال" على وزن "أفعال" ويفهم من هذا التغاير: أن محبوبته قد بالغت في الستر والعفاف والطهارة فذيول الثياب البيض قد تكاثرت لأمرين الأول: لسترها وعفافها.

الثاني: الدلالة على الوضاءة والضياء واللمعان الناشئ عن جمالها فهي ترسل الضياء وتبعث الدفء في المكان كما ترسل الشمس أشعتها المحملة بالنور والضياء بل إن ضياء المحبوبة أقوى وأظهر، وأتم وأوضح.

كما يلحظ أن ابن المعتز هنا وصف ذيول الثياب بالبياض كناية عن العفاف والطهر، وفي موطن آخر وصف الذيول بقوله: "ثنين الذيول" كناية عن سمكها وشدة سترها فاجتمع في محبوبته الأمران العفاف والطهر، وشدة التخفي والتستر.

وقد تمم المشهد بقوله:

وقـــرع ناقـــوس ديـــري علـــى شـــرف مســـــبح في ســـــواد الليـــــل دعـــــاء

وهذا البيت متعلق بالبيت الثاني في القصيدة:

أيـــــن التـــــورع مـــــن قلـــــب يهـــــيم إلى حـــــانات لهـــــو غـــــدا بالعـــــود والنـــــاء

وهذا الاستفهام يحمل معنى النفي، فهو لا يستطيع التورع عن حانات اللهو، وصوت فتانة التغريد وقرع ناقوس ديري، وفيه تشبيه ضمني، فقد شبه نفسه في تعرضه للنساء وهيامه بهن، ودعوته لهن، بقارع ناقوس الدير وقد وصفه بأربع صفات "على شرف"، "مسبح" في سواد الليل "دعاء" وكلها صفات تدل على زيادة السماع، وتحمل على إجابة القرع والدعاء، فالقرع على مكان عال أكثر إسماعا من غيره، وهذا القرع من مسبح "كثير التبتل، وفيه معنى كثرة تعرضه للجميلات كما يكثر المسبح الدعاء والتبتل "في سواد الليل دعاء" وخص الدعاء بأنه في سواد الليل؛ لأن الصوت أكثر سريانا والأذن أشد سماعا، فكما أن قارع الناقوس في ظلام الليل يجاب ويسعى إليه، فكذلك هو في شغفه بالنساء وسعيه إليهن.

وخص الناقوس والديري والدير لشدة جمال النصارى وقوة فتنتهم، وكثيرا ما تغزل في الساقي النصراني كقوله:(١٤٧)

ابـــن نصـــارى يـــدين ديـــنهم حـــدث عنـــه بـــذاك زنار(١٤٨)

وقوله:(١٤٩)

قـــد حثـــني بالكـــأس أو في فجـــره ســـاق علامـــة دينـــه في خصـــره

وقوله:(١٥٠)

وســـاقي حانـــة يغـــدو علينـــا بـــزنار وأقبيـــة صـــغار

وقد اختار ابن المعتز لهذه الصورة اللون الأسود؛ لأنه المناسب، فالصورة لراهب في دير، في مكان عال، بعيد عن الناس، وسط الليل المظلم الملفوف بالسكون والهدوء، وهو كثير التبتل والدعاء، والرسام ليس له إلا أن يظلل الصورة باللون الأسود، ومن بين رمزياته الهدوء والسكون والهم والحزن وهو

(١٤٧) ديوانه ص ٢٢٩.

(١٤٨) والزنار: حزام يشد في وسط النصراني اللسان مادة زنر ٣/ ١٨٧١.

(١٤٩) ديوانه ص ٢٢٧.

(١٥٠) ديوانه ص ٢٣٠.

ديدن أهل العشق والهوى، كما أن الليل مظلم يخفى الحقيقة ويختفي الإنسان به فيقدم على فعل ما لا يجرؤ على فعله في وضح النهار(١٥١)، وأهل الهوى يفضلونه ويميلون إليه.

إلى هنا والمشهد قد تم، وقد استعمل الشاعر فيه خمسة ألوان حيث ذكر الأسود مرتين في قوله "حوراء" وفي قوله: "في سواد الليل دعاء" كما ذكر الأبيض مرتين في قوله "حوراء" وفي قوله: "جرت ذيول الثياب البيض" واللون الأصفر الذهبي في قوله: "كالشمس مسبلة. . . ".

أما المشهد الثاني: فقد استغرق ثلاثة عشر بيتا من البيت السادس في قوله:

وكأس حبرية شكت بمبزلها أحشاء مشعلة بالقار جوفاء

إلى البيت الثامن عشر في قوله:

كأنه صب سلسال المزاج على سبيكة من بنات التبر صفراء

وقد حوى المشهد ثلاثة تشبيهات:

الأول في قوله:

فآب في آب يجنيها لعاصرها كأن كفيه قد علت بحناء

(١٥١) راجع: اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي ص ٦٨، للباحثة: أمل محمود عيد القادر أبو عون- سابق.

والثاني في قوله:

يســـقيكها خنـــث الألحـــاظ ذو هيـــف كـــأن ألحاظـــه أفـــرقن مـــن داء

والثالث في قوله:

كأنـــه حـــب سلســـال المـــزاج علـــى ســـبيكة مـــن بنـــات التـــبر صـــفراء

وقد حوى المشهد كثيرا من الألوان التي ساعدت على تجميله وتحسينه، وتمازجت واختلطت وأخرجت منظرا بديعا رائعا رائقا، فاللون الأسود والأخضر وما يحملانه من دلالة ورمز في قوله يصف ثمار العنب التي تم نضجها في أشجارها التي اشتعلت وتكاثرت خضرتها:

ترفـــو الظـــلال بأغصـــان مهدلـــة ســـود العناقيـــد في خضـــراء لفـــاء

ويذكر اللون الأصفر والأسود والأحمر، الذي يضرب إلى السواد في قوله:

ثم اســـتقرت وعـــين الشـــمس تلحظهـــا في بطـــن مختومـــة بالطـــين كلفـــاء

فقوله: "وعين الشمس" يشير إلى اللون الأصفر وقوله "في بطن مختومة بالطين" يشير إلى الآنية التي يوضح فيها الخمر، وقوله "كلفاء" هي الخمر التي تشتد حمرتها حتى تضرب إلى السواد. (١٥٢)

(١٥٢) اللسان مادة كلف ٥/ ٣٩١٦.

واللون الأسود في قوله:

حتى إذا برد الليل البهيم لها وبلها سحرا منه بأنداء

فالليل البهيم وما فيه من البرودة الندية التي تحسن وتجمل هذه الخمر كما يشير إلى اللون الأحمر في مجالس الشراب في قوله:

على فراش من الورد الجني وما بدلت من نفحات الورد بالالاء

والورد: لون أحمر يضرب إلى صفرة حسنة في كل شيء. (١٥٣)

وقوله:

فآب في آب يجنيها لعاصرها كأن كفيه قد علت بحناء

شبه يدي الجاني الذي يجني ثمار العنب، التي يصنع منها الخمر، وقد تخضبت بسبب جنيه لثمار العنب، التي اكتمل نضجها وتلونت بلون حبات العنب حتى لكأن كفيه قد سقيت سقيا بالحناء، وهو خضاب أحمر تخضب به النساء للزينة، وقد ذكره ابن المعتز وزين به فتياته من مثل قوله:(١٥٤)

ثنين الذيول وارتدين بسابغ كحبات رمل وانتقبن بحناء

(١٥٣) اللسان مادة ورد ٦/ ٤٨١٠.

(١٥٤) ديوانه ص ٧.

وهذا اللون يشع في النفس الفرحة والبهجة فناسب أن يشبه يدي الجاني بالحناء، وقد جانس في قوله: "فآب في آب" فـ "آب" الأولى بمعنى رجع والثانية اسم من شهور السنة القبطية فيه تستوي ثمار العنب وتقطف.

أما التشبيه الثاني في قوله:

يســـقيكها خنـــث الألحـــاظ ذو هيـــف كـــــأن ألحاظـــــه أفـــــرقن مـــــن داء

فهو يصف ألحاظ الساقي بالخنث وهو التثني والتكسر(١٥٥) وهو نوع جمال في العيون، ويشبهها بألحاظ برأت من مرض، وعادة فإن المتعافى حديثا من المرض يظهر في حركة عينيه بطء وضعف، والمشبه قريب من المشبه به فمتكسر الألحاظ ضعيفة حركة عينيه، وكذا الذي برأ من المرض فيه نفس الخاصية، لكن يبقى تكسر العينين في المشبه فيه نعومة ورقة ودلال بعكس حركة العينين في المشبه به ففي ضعفها وهن وألم وهزال، مع كثير من الفوارق النفسية لكن الشعراء أغرموا بهذا التشبيه، ناظرين إلى الحركة البطيئة في كل، والتشبيه تكفي فيه المماثلة من بعض الوجوه.

(١٥٥) اللسان مادة خنث ٢/ ١٣٧٢.

أما التشبيه الثالث:

كأنـــه صـــب سلســـال المـــزاج علـــى سـبيكة مـــن بنـــات التـــبر صـــفراء(١٥٦)

فهو يصف الماء الذي تمزج به الخمر، بأنه ماء عذب بارد صاف، ففي اللسان(١٥٧): السلسل والسلسال: السهل في الحلق وقيل هو الماء البارد، ويشبه الخمر قبل مزجها به بسبيكة من الذهب فيقال: لونه أصفر ذهبي لكنه أردفه بذكر اللون الأصفر تأكيدا للون الخمر، الذي يدل على أصالتها وتعتقها في قوله: "على سبيكة من بنات التبر صفراء، ولك أن تتصور خمرا أشبهت سبيكة ذهبية، مزجت بماء عذب بارد صاف كيف يكون الطعم والمذاق في نظر الخمارين؟!!.

والمشهد الثالث والأخير يبدأه بقوله:

يا صـــاح إن كنـــت لم تعلـــم فقـــد طرحـــت شـــــرارة الحـــــب في قلـــــبي وأحشـــــائي

وفيه يعاود الحديث عن حبيبته، ولكن بعد أن مرت عليها السنون، وكر عليها الدهر، وتغيرت أوصافها وضاع جمالها فبدر المحبوبة قد أصابه المحاق بعد النور والإشراق.

أمـــا تـــرى البـــدر قـــد قـــام المحـــاق بـــه مـــــن بعـــــد إشـــــراق أنـــــوار وأضـــــواء

---

(١٥٦) المزاج: خلط الشراب بالشيء ومزج الشراب خلطه بغيره ومزاج الشراب ما يمزج به اللسان مادة مزج ٦/ ٤١٩١، سبيكة: سبك الذهب والفضة ونحوه: أفرغه في قالب اللسان مادة سبك ٣/ ١٩٢٩.

(١٥٧) مادة سلسل ٣/ ٢٠٦٤.

فقد شبه المحبوبة في شبابها بالبدر في النور والإشراق، كما أخبر أن المحاق قد حل بها بعد تقدم السن بها وضياع جمالها وهو: آخر الشهر إذا أمحق الهلال فلم ير. (١٥٨)

كما شابت شعرات في عوارضه فأصبح منظرا يزري ولا يغري:

وقد عست شعرات في عوارضه تزري على عارضيه أي إزراء

ثم يشبه خدها في شبابها بالزبرجد وهو: حجر كريم يشبه الزمرد، ذو ألوان كثيرة أشهرها الأخضر المصري، والأصفر القبرصي، ويشبهه بعد مرور الزمن عليه بالسبج، وهو: خرز أسود طالما أكثر من ذكره، والتشبيه به، لذا فقد بكى عليه كل بكاء.

فانظر زبرجد خد صار من سبج وصب دمعا عليه كل بكاء

والتشبيه الأول من إضافة المشبه به إلى المشبه والأصل: خد كالزبرجد، والتشبيه الثاني ضمني يفهم من السياق، أي: خد كالسبج في سواده، وذهاب ضيائه وإشراقه وقد حوى المشهد كثيرا من الألوان التي ساعدت في إبراز المشهد كما أراده الشاعر، وكانت له دلالات ورمزيات مبينة، فقد اختار لفظة "البدر" لشباب محبوبته، وفيه من النور والضياء والإشراق ما يبهج النفس، ويسر الفؤاد، كما اختار لفظ الزبرجد الذي يحوي ألوانا كثيرة مبهجة كالأصفر والأخضر فشبه شباب خديها به أما في حال ذهاب الجمال وفوات الشباب فقد اختار ألفاظا وألوانا تشع حزنا وكآبة وتشي بالشحوب والنضوب

(١٥٨) اللسان مادة محق ٦/ ٤١٤٦.

مثل "المحاق" وهو النقصان وعدم الرؤية، واللون الأسود في تشبيه خديها بالسبج ولفظة "عست" ومعناها كبر وضعف(١٥٩) ولفظه "يزري دمعا" إخفاء "بكاء" ولو قدر لرسام أن يرسم محبوبة ابن المعتز التي صورها في هذه القصيدة لرسمها على صورتين الأولى: فتاة غادة اكتملت أنوثتها وتم حسنها، وبهر جمالها وجرى ماء الحياة في جسدها دفاق، عليها من كل زينة، تعيش بين قصور ورياض وتلبس اللين من الثياب، تخضيت بكل الألوان المتناسقة، والثانية: امرأة دب الوهن في جسدها، وعرفت التجاعيد طريقها إليها، واشتعل شيب رأسها حتى أزرى بها أيما إزراء.

***

ومن غزله في قصيدة بلغت ثلاث عشرة بيتا اكتظت بالتشبيهات، يقول فيها:(١٦٠)

لا ورمـــــــــــان النهـــــــــــود فـــــــوق أغضـــــــان القـــــــدود

وعناقيـــــــد مـــــــن الصـــــــد غ، وورد مـــــــن خـــــــدود

ووجـــــــوه مـــــــن بـــــــدور طالعـــــــات مـــــــن ســـــــعود

***

(١٥٩) لسان العرب مادة عسا ٤/ ٢٩٤٩.

(١٦٠) ديوان ص ١٣٧.

مـــــــا رأت عيـــــــني كظـــــــبي زارني في يـــــــــــوم عيـــــــــــد

في قبـــــــــاء فـــــــــاختي اللـــــــــ ـــــــون مـــــــن لـــــــبس جديـــــــد

كلمـــــــــا قاتـــــــــل جنـــــــــ ـــــــدي بســـــــيف أو عمـــــــود

قاتـــــــــل النـــــــــاس بعينبـــــــــ ـــــــن وخـــــــدين وجيـــــــد

قـــــــد ســـــــقاني الـــــــراح مـــــــن فيـــــــه علـــــــى رغـــــــم الحســـــــود

وتعانقنـــــــــــــا كـــــــــــــأني وهـــــــو في عقـــــــد شـــــــديد

وقد حوت القصيدة على كثير من التشبيهات نخص منها التشبيهات الملونة فقد شبه النهود بالرمان والقدود بالأغصان وهو من إضافة المشبه به إلى المشبه أي: نهود كالرمان، وقدود كالأغصان، وقد لحظ في التشبيه الأول اللون والشكل أما الثاني فقد لاحظ فيه الدقة والاستقامة والتشبيه الثالث في قوله "وعناقيد من الصدغ" فقد شبه الأصداغ بعناقيد العنب التي استوت ولاحظ فيه اللون والشكل فحبات العنب تميل إلى السواد بعد نضجها الذي يقترب من لون الشعر وكذا شكله الذي يطلق عليه "واوات الحسان"، وقد كرر هذا التشبيه في أكثر من موطن كما في قوله:(١٦١)

وفـــــاحم مـــــال علـــــى الخـــــد مثـــــل العناقيـــــد علـــــى الـــــورد

(١٦١) ديوانه ص ١٦٩.

وصـــــولجان الصـــــدغ مســـــتمكن للضـــــرب مـــــن تفاحـــــة الخـــــد

وفي التشبيه الرابع: "ورد من خدود" لاحظ اللون أيضا فالورد "لونه أحمر يضرب إلى صفرة حسنة في كل شيء"(١٦٢) والشبه بينه وبين الخدود في اللون والإشراق ودلالة لون الورد ورائحته تنعكس على النفس بالبهجة والسعادة ويمكن أن يلحظ فيه قلب التشبيه؛ إذ لم يقل: وخدود من ورود، وإنما قلب فجعل الخد أصلا في الإشراق واللمعان والورد قد استمد منه لونه وإشراقه ولمعانه، وفيه مبالغة لا تخفى ولو جعل الأسلوب من قبيل المبالغة حيث بالغ وجعل الخدود وردا لكان أبلغ وأولى من التأويل الذي يقلل من قيمة الأسلوب ويضعفه وكذا قوله "ووجوه من بدور" فقد جعل الوجوه بدورا، مبالغة في إشراقها ولمعانها، فالبدر علم على لون الضياء والإشراق، وقيد البدور بأنها "طالعات في سعود" نسبة إلى الكواكب العشرة التي يقال لكل واحد منها سعد، وهي من نجوم الصيف، ومنازل القمر تطلع في آخر الربيع وقد سكنت رياح الشتاء، ولم يأت سلطان رياح الصيف فأحسن ما تكون الشمس والقمر والنجوم في أيامها، لأنك لا ترى فيها غبرة"(١٦٣).

(١٦٢) اللسان مادة ورد ٦/ ٤٨١٠.

(١٦٣) اللسان مادة سعد ٣/ ٢٠١٢.

والتشبيه الخامس في قوله:

مـــــــا رأت عيـــــــني كظـــــــبي زارني في يـــــــــــوم عيـــــــــــد

في قبـــــــاء فـــــــاختي اللـــــــــ ـــــــون مـــــــن لـــــــبس جديـــــــد

فقد شبه محبوبته بالظبي في الجمال، ولم ينس أن يلون تشبيهه، فأضاف إلى جمال الظبية جمالا معنويا، وهو زيارتها له في يوم عيد، فهو في سرور نفسي انضاف إليه سرور زيارة المحبوبة، والحسي في تلوينه ثيابها بالألوان اللامعة البراقة في قوله "في قباء فاختي اللون من لبس جديد" والقباء: ثوب يلبس فوق الثياب[١٦٤] والفاختي: الفاختة واحدتها الفواخت، وهي ضرب من الحمام المطوق. . . والفخت: ضوء القمر أول ما يبدو[١٦٥] فقد لون ثيابها بأكثر من لون براق مضيء له كبير الأثر في النفس.

---

(١٦٤) اللسان مادة قبا ٥/ ٣٥٢٣.

(١٦٥) اللسان مادة فخت ٥/ ٣٣٦٠.

المبحث الثاني

اللون يستعمل في المعنى وضده

الألوان التي وظفها ابن المعتز لرسم صوره ومشاهده سواء أكانت سارة بهجة، أم يائسة حزينة، لا تدل بذاتها على هذا المعنى؛ لأنه لا يطلق على اللون أنه جميل أو قبيح لذاته، وإنما يكتسب حسنه وبهاءه، أو عكس ذلك بما يعبر عنه، أو بما يحيط به، فاللون الواحد قد يدل على المعنى وعكسه، فاللون الأصفر لون الذهب الثابت الذي يبهج ويسر، وصفرة المرض تحزن وتؤلم(١٦٦) وقد وظف ابن المعتز الألوان حسب ما يتطلبها المشهد، فهو يستعمل اللون الأسود- مثلا- في المواطن الفرحة البهجة، كما يستعمله في المواطن الحزينة اليائسة فمن استعماله في مواطن البهجة والسرور قوله:(١٦٧)

وسـوداء ذات دلال غـنج لهـا في الفـؤاد هـوى يعـتلج

إذا أنـت أبصـرتها في النسـا تـرى لعبـة خرطـت مـن سـبج

(١٦٦) راجع إحياء علوم الدين للغزالي ٤/ ١٩٧ ت: الشحات الطحان وعبد الله المنشاوي ط أولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م مكتبة الإيمان- المنصورة.

(١٦٧) ديوانه ص ١٣٥.

فهو يشبه هذه الفتاة السوداء ذات الدلال والتكسر، والتي علق الفؤاد بها بلعبة خرطت من سبج، والسبج: خرز أسود، وفي استعمال اللون الأسود هنا كناية عن جمالها وسحرها وأنها قد استحوذت على قلبه، ومثله قوله:(١٦٨)

ضـــحكت شـــر إذ رأتـــني قـــد شبـــ ـــت وقالـــت: قـــد فضـــض الأبنـــوس

والأبنوس: شجر خشبه أسود(١٦٩) كنى بتفضيضه عن شيبه وذهاب شبابه إذ سواد الشعر غالبا ما يكون دليلا على الشباب والقوة التي تسر وتبهج، وفيه تشبيه سواد شعره في حال شبابه بسواد خشب الأبنوس، وبياض شعره في حال كبره بابيضاض خشب الأبنوس.

كما يستعمل اللون الأسود في مواطن الحزن والألم، فالثياب السوداء تلبس في وقت المحن والمصائب، والمرأة بعد تقدم العمر بها، وزوال مفاتنها يعبر عنها بالسواد، والليل وظلامه الحالك وما يحمله من هموم، والمعاني السيئة يعبر عنها بالسواد مجازا، وقد نقل ابن رشيق لبعض المولدين قوله:

وتـــــدير عينـــــا في صـــــفيحة فضـــــة كســـــــواد يأس في بيـــــاض رجـــــاء

فاليأس على الحقيقة غير أسود، لأنه لا يدرك بالعيان، لكن صورته في العقول وتمثيله كذلك مجازا، والرجاء أيضا على هذا التقدير في البياض، (١٧٠) وقد سبق قول ابن المعتز:(١٧١)

---

(١٦٨) ديوانه ص ٢٧٢.

(١٦٩) المعجم الوجيز حرف الألف ص ٢.

فـــانظر زبرجـــد حـــد صـــار مـــن ســـبج وصـــب دمعـــا عليـــه كـــل بكـــاء

فشبه خد الفتاة حال شبابها بالزبرجد، وما يحويه من الألوان البراقة كناية عن النصاعة والجمال، ويشبه خدها بعد كبرها بالسبج: وهو خرز أسود، فكنى باللون الأسود عن زوال مفاتنها وذبول أنوثتها، وما حل بها من الضعف والهزال.

ويستعمل اللون الأحمر كناية عن البهجة والسرور، فهو لون الورود، ولون الخمر، ولون الثياب البهجة، يقول يصف فتاته بجمال صوتها وثيابها:(١٧٢)

وقمريـــــة الأصـــــوات حمـــــر ثيابهـــــا تهـــين ثيـــاب الوشـــي جـــرا وتســـحابا

فقوله: "حمر ثيابها" كناية عن جمالها ورفاهيتها.

وفي مواطن الحزن والشدة هو لون الدم ولون الغضب، وغالبا ما يكون في وقت الحرب والعداوة يقول(١٧٣)- وهو يصف قوة جيشه، وشدة بأسه، وكثرة جنده.

وجـــيش كمثـــل الليـــل يســـود شمســـه ويحمـــر مـــن أعدائـــه الـــبر والبحـــر

(١٧٠) العمدة لابن رشيق ١/ ٢٨٩.

(١٧١) ديوانه ص ١٤.

(١٧٢) ديوانه ص ٣٨.

(١٧٣) ديوانه ص ٢٠٢.

فهو يشبه جيشه في كثرته وقوته بأنه مثل الليل، وقوله "تسود شمسه" كناية عن الكثرة، وقوله: "يحمر من أعدائه. . " كناية عن القوة والبأس الشديد وكثرة الدماء الناتجة عن كثرة القتل.

ويستعمل اللون الأبيض في مواطن البهجة والسرور، فهو رمز الطهارة والنقاء وهو لون الصبح وضيائه، ولون وجوه الفائزين ولون المعاني الحسنة كما مر يقول:(١٧٤)

رددت سهامي عنك بيضا وخضبت سهامك في قلبك عميد وأحشاء

فقوله: "رددت سهمي عنك بيضا" يقصد حسن معاملته لها، وصفحه عن هفواتها، وصفاء ودادها فاستعمل اللون الأبيض فيما يسر وقوله: "وخضبت سهامك. . . " الخضاب: تغيير اللون بحمرة أو صفرة أو غيرهما(١٧٥)، ويقصد قسوة معاملتها، وشدة هجرتها، وقوة تأثير نظراتها. كما يستعمله في مواطن الألم والحزن فهو رمز الشيب وما فيه من الضعف والوهن والشيخوخة يقول:(١٧٦)

بان الشباب وفيه اللهو والفرح وأقبل الشيب فيه الهم والترح

فعد ذكر الصبا واهجر لذاتته واسوءتاه من بياض فوقه قدح(١٧٧)

(١٧٤) ديوانه ص ٧.

(١٧٥) اللسان مادة خضب ٢/ ١١٧٩.

(١٧٦) ديوانه ص ١٥٢.

(١٧٧) قدح الدود في الأسنان والشجر قدحا، وقد تآكل يقع فيه. اللسان مادة قدح ٥/ ٣٥٤١.

فقوله: "بان الشباب" أسلوب خبري يقصد به التوجع والتحسر على فوات الشباب وما فيه من القوة والوضاءة، وقوله: "أقبل الشيب" يخبر عن واقع يعيشه من الضعف والوهن، ولذا فهو يتأسف على بياض شعره، وما يجري فيه من التآكل والوهن، فاستعمال اللون الأبيض هنا في مقام التحزن والتحسر، وليس في مقام البهجة والسرور. . .

والإمام عبد القاهر الجرجاني، النحوي البلاغي، تحدث عن الألوان وذكر أن اللون لا يدل على مدح أو ذم في ذاته، وإنما يكتسب مدحه أو ذمه بما يحيط به، ولأهمية ما قال سأنقل نصه على طوله، يقول وهو يتحدث عن حسن التعليل:(١٧٨) ". . . ومن ذلك صنيعهم إذا أرادوا تفضيل شيء أو نقصه، ومدحه أو ذمه، فتعلقوا ببعض ما يشاركه في أوصاف ليست هي سبب الفضيلة والنقيصة، وظواهر أمور لا تصحح ما قصدوه من التهجين والتزيين على الحقيقة، كما تراه في باب الشيب والشباب كقول البحتري:(١٧٩)

وبيـــاض البـــازي أصـــدق حســـنا إن تأملـــت مـــن ســـواد الغـــراب

وليس إذا كان البياض في البازي آنق في العين، وأخلق في الحسن من السواد في الغراب، وجب لذلك أن لا يذم الشيب، ولا تنفر منه طباع ذوي الألباب لأنه ليس الذنب كله لتحول الصبغ، وتبدل

(١٧٨) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهرة الجرجاني ص ٢٦٨.

(١٧٩) ديوان البحتري ١/ ٨٤، تحقيق حسن كامل الصيرفي. ط ثالثة، دار المعارف- بدون.

اللون، ولا أتت الغواني ما أتت من الصد والإعراض لمجرد البياض، فإنهن يرينه في قباطي مصر[١٨٠] وفي أنوار الروض وأنوار النرجس الغض، فلا يعبسن، فما أنكرت ابيضاض شعر الفتى لنفس اللون وذاته، بل لذهاب بهجاته وإدباره في حياته، وإنك لترى الصفرة الخالصة في أوراق الأشجار المتناثرة عند الخريف، وإقبال الشتاء وهبوب الشمال فتكرهها، وتنفر منها، وتراها بعينها في إقبال الربيع في الزهر المتفتق، وفيما ينشئه ويشيه من الديباج المونق، فتجد نفسك على خلاف تلك القضية، وتمتلئ من الأريحية، ذلك لأنك رأيت اللون حيث النماء والزيادة، والحياة المستفادة، وحيث أبشرت أرواح الرياحين، وبشرت أنواع التحاسين، ورأيته في الوقت الآخر حين ولت السعود، واقشعر العود وذهبت البشاشة والبشر، وجاء العبوس والعسر ثم يضيف[١٨١]: "ولو عدم البازي فضيلة أنه جارح، وأنه من عتيق الطير، لم تجد لبياضه الحسن الذي تراه ولم يكن للمحتج به على من ينكر الشيب ويذمه ما تراه من الاستظهار، وكما أنه لولا ما يهدي إليك المسك من رياه التي تتطلع إليها الأرواح، وتهش لها النفوس وترتاح، لضعفت حجة المتعلق به في تفضيل الشباب، وكما لم تكن العلة في كراهة الشيب بياضه، ولم يكن هو الذي غض عنه الأبصار، ومنحه العيب والإنكار، كذلك لم يحسن سواد الشعر في العيون لكونه سوادا فقط، بل لأنك رأيت رونق الشباب ونضارته، وبهجته وطلاوته، ورأيت بريقه وبصيصه يعدانك الإقبال ويريانك الاقتبال،

---

(١٨٠) القبطية: ثياب كتان بيض رقاق تعمل بمصر وهي منسوبة إلى القبط على غير قياس فالجمع قباطي وقباطي- اللسان مادة قبط ٥/ ٣٥١٤.

(١٨١) أسرار البلاغة ص ٢٦٩.

ويحضرانك الثقة بالبقاء، ويبعدان عنك الخوف من الفناء، وإنك لترى الرجل وقد طعن في السن وشعره لم يبيض، وشيبه لم ينفض، ولكنه مع ذلك قد عدم إبهاجه الذي كان، وعاد لا يزين كما زان وظهر فيه من الكمود والجمود، ما يربكه غير محمود".

وكلام الإمام عبد القاهر يدل على أن اللون لا يدل بذاته على مدح أو ذم أو تحسين أو تهجين، وإنما يدل على هذا وذاك بمعونة السياق، واجتماع القرائن، فاللون يدل على المعنى في موقف، وعلى ضده في موقف آخر، وضرب لذلك أمثلة فوق مثال البيت هي: إن اللون الأصفر تراه في أوراق الأشجار المتناثرة عند الخريف حين ولت السعود، واقشعر العود، وذهبت البشاشة والبشر، وجاء العبوس والعسر فتكرهها وتنفر منها، وترى اللون بعينه في إقبال الربيع، وفي الزهر المتفتق، والديباج المونق، وحيث النماء والزيادة، وحيث الحياة المستفادة، فتمتلئ بهذا اللون أريحية وسعادة.

واستعمال اللون في المعنى وضده هو ما يسميه البديعيون بالتدبيج: وهو نوع من المقابلة: وهي أن يذكر المتكلم ألوانا بها التورية والكناية، كما في قول أبي تمام:

تـــردي ثيـــاب المـــوت حمـــرا فمـــا أتـــى لهـــا الليـــل إلا وهـــي مـــن ســـندس خضـــر

فقد جمع بين الحمرة والخضرة، وقصد بالألوان الكناية عن القتل، وبالثاني الكناية عن دخول الجنة[١٨٢]. . . وذكر بعضهم: أن ذكر الألوان باقية على حقيقتها لا يمنع التدبيج كما في قوله:

ومنثـــــور دمعـــــي غـــــدا أحمـــــر علـــــى أس عارضـــــك الأخضـــــر

وكما في قول ابن الصلاح:

مـــا أبصـــرت عينـــاك أحســـن منظـــرا فيمـــا يـــرى مـــن ســـائر الأشـــياء

كالشـــامة الخضـــراء فـــوق الوجنـــة الـــ حمـــراء تحـــت المقلـــة الســـوداء[١٨٣]

وعليه فيكون قد وسع معنى التدبيج، والنوعان موجدان في شعر ابن المعتز، وقد أكثر منه حتى إن شواهده تصلح بحثا مستقلا، ومن ذلك قوله:[١٨٤]

وبيضـــاء مـــن نعمـــاك لمـــا جحـــدتها أبيـــت بحمـــراء القمـــيص تنـــادي

([١٨٢]) شروح التلخيص ٤/ ٢٩١- دار الكتب العلمية لبنان، والإتقان للسيوطي ٣/ ٢٢٧ سابق.

([١٨٣]) حاشية الدسوقي على شرح السعد ٤/ ٢٩١- شروح.

([١٨٤]) ديوانه ص ١٧١.

فقد كنى عن النعمة باللون الأبيض، وعن الشقاء باللون الأحمر، ويكنى باللون الأخضر عن النعمة والرفاهية في قوله:(١٨٥)

سـرت بوطأتـه المنـابر إذ عـلا درجاتهـا واخضـر منهـا العـود

وهو شبيه بقول أبي نواس:(١٨٦)

واصـفر عـود لهـا مـن بعـد خضـرته وأسـقط البـين عـن أغصـانه الورقـا

فكنى باللون الأصفر عن زوال جمال محبوبته، واندراس مفاتنها، كما كني باخضرار العود، عن جمالها ونعمتها.

ويكنى باللون الأخضر عن جمال الساقي في قوله:(١٨٧)

ليـت اخضـرار بياضـه وعـذاره لزبرجـد أو لؤلـؤ في قرطـه

وفيه تشبيه مقلوب ضمني حيث جعل الزبرجد واللؤلؤ لا يماثلان نصاعة وإشراق خده وجمال عذاره.

ويشبه محبوبته بالبدر في تألقها وجمالها، ويكنى بسواد مفارقه عن شبابه وقوته فيقول:(١٨٨)

---

(١٨٥) ديوانه ص ١٧٢.

(١٨٦) ديوان أبي نواس ص ٣٩١.

(١٨٧) ديوان ابن المعتز ص ٢٩٣.

وإذ هـــي مثـــل البـــدر يفضـــح ليلـــه وإذ أنا مســـــود المفـــــارق يافـــــع

وقد ذكر الدكتور خفاجي[١٨٩] أن لابن المعتز كابن الرومي فنا مستقلا في تصوير الألوان وهو ما سماه البديعيون التدبيج ومثل له بأمثلة من شعره كقوله:[١٩٠] في الشمس حين الشروق

فنلنـــا طـــرى اللحـــم والشـــمس غضـــة كـــأن ســـناها صـــب في الأرض زريابا

والزرياب: الذهب. [١٩١] ويقول في الشمس وشعاعها:[١٩٢]

وشـــارق يضـــحك مـــن غـــير عجـــب كأنـــه صـــب علـــى الأرض ذهـــب

والشارق الشمس، وفي البيت وقف على المنصوب.

ويتغزل بالمذكر فيقول:[١٩٣]

بوجنـــــــــــــة كأنمـــــــــــا يقـــــــدح منهـــــا الشـــــرر

يكنى عن جماله وإشراق ونصاعة وجنته.

ويشبه الخمر في صفرتها بقطع من الشمس ويكنى بها عن الذهب في قوله:[١٩٤]

---

(١٨٨) ديوانه ص ٣٠٧.

(١٨٩) في كتابه ابن المعتز ص ٢١٨- سابق.

(١٩٠) ديوانه ص ٣٧.

(١٩١) اللسان مادة زرب ٣/ ١٨٢٣.

(١٩٢) لم أجده في ديوانه.

(١٩٣) ديوانه ص ٢٠٦.

فكـــــــأن كفيـــــــه تقســـــــم في أقـــــداحنا قطعـــــا مـــــن الشـــــمس

وما ذكره الدكتور/ خفاجي ليس فيه تدبيج لا على القول بأن التدبيج هو ذكر ألوان بقصد التورية والكناية، ولا على القول بأن ذكر الألوان وبقائها على حقيقتها يعد تدبيجا، وذلك لأن الأبيات الأربعة التي ذكرها، إنما ذكر اللون بما يدل عليه ولم يقابله بلون آخر، أو بلفظ يدل على لون، والتدبيج نوع من المقابلة ففي البيت الأول ذكر من أسماء الذهب "زريابا" وفي البيت الثاني ذكر كلمة "ذهب" وفي الثالث ذكر "وجنة كأنما يقدح منها الشرر" وفي الرابع شبه الخمر بـ "قطعا من الشمس"، فلا أدري على أي شيء اتكأ على أن هذه الأبيات فيها تدبيجا؟!!

(١٩٤) ديوانه ص ٢٧٠.

المبحث الثالث

فجوات فنية وأسلوبية في بعض تشبيهات ابن المعتز

كعادة كل أديب وفنان لابد لجواده أن يكبو، وللسانه أن يعثر، ولريشته أن تقصر، فيدركه الإعياء حينا، وينقطع نفسه حينا آخر، ويقول على غير اختيار حينا ثالثا، وقد ذكر ابن رشيق في كتابه العمدة في الفصل الذي عقده لعمل الشعر، وشحذ القريحة: أنه لابد للشاعر وإن كان فحلا حاذقا مبرزا مقدما، من فترة تعرض له في بعض الأوقات، إما لشغل يسير، أو موت قريحة، أو نبو طبع في تلك الساعة، وذلك الحين، وقد كان الفرزدق- وهو فحل مضر في زمانه- يقول: تمر علي الساعة وقلع ضرس من أضراسي أهون علي من عمل بيت من الشعر. (١٩٥)

وقد تمثلت فجوات ابن المعتز في النواحي الفنية والأسلوبية، أما من حيث دلالة الألوان فلم أستطع أن أرصد شيئا؛ لأن ذلك يحتاج إلى فنان تشكيلي خبير بدرجات الألوان وكيفية خلطها، لذا سيكون الحديث في هذا المبحث في محورين:

الأول: الفجوات الفنية في تشبيهات ابن المعتز في الخمر والغزل.

الثاني: الفجوات الأسلوبية.

---

(١٩٥) العمدة لابن رشيق ١/ ٢٠٤، وفن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه للدكتور محمد صالح الشنطي ص ٣٢ ط أولى ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م- الرياض.

أولا: الفجوات الفنية:

١- يصف الخمر وأصالتها ويدعو إلى شربها، كما يصف الساقي وحلاوة شمائله في قوله:(١٩٦)

بشر بالصبح طائر هتفا ... مستوفيا للجدار مشترفا
مذكرا بالصبوح صاح بنا ... كخاطب فوق منبر وقفا
صفق إما ارتياحه لسنى الـ ... ـفجر وإما على الدجى أسفا
فاشرب عقارا كأنها قبس ... قد سبك الدهر تبرها فصفا
تذمي فدام الإبريق من دمها ... كأنه راعف وما رعفا
بكف ساق حلو شمائله ... مكره لحظ عينه صلفا
يقطر مسكا على غلائله ... شعر نقا بالعبير قد وكفا
أفرغ من دره وعنبره ... حسنا وطيبا في خلقه ائتلفا
يطيب الريح حين يمسحه ... فما بريح هبت عليه خفا
أراق فيها المزاج فاشتعلت ... كمثل نار أطعمتها سعفا

وقد جمعت المقطوعة من عناصر الحسن الكثير، في عذوبتها وسلاسة ألفاظها وتناغم جرسها، وحسن مقاطعها، فسهولة ألفاظها تناسب رقة الغزل وسلسال الخمر؛ إذ يبدأها بقوله "بشر بالصبح" مذكرا بالصبوح"، "عقارا كأنها قبس" الدر، والعنبر، والحسن، والطيب، وهذا ما يسميه البلاغيون مراعاة النظير أو التناسب والائتلاف والتوفيق، وهو أن يجمع في الكلام يبن أمر وما يناسبه لا بالتضاد(١٩٧). .

.

وقد وقع فيها بعض المؤاخذات التي يمكن أن توجه إلى ابن المعتز فقد اشتملت على أربع تشبيهات منها تشبيهان فيهما من الحسن والجودة الكثير هما قوله:

مذكرا بالصبوح صاح بنا ... كخاطب فوق منبر وقفا

فقد جعل ديك الصباح وهو يؤذن بطلوع الفجر، وكأن ينبه ويذكر بالصبوح مثل خطيب فوق منبر، وفيه من حسن الملاءمة وبداعة الخيال ما يؤنس النفس ويريح الفؤاد وقوله:

فاشرب عقارا كأنها قبس ... قد سبك الدهر تبرها فصفا

فهو يشبه الخمر بالقبس وهو الشعلة من النار، وقد أكثر منه ابن المعتز ومراده أن يخبر عن أصالة الخمر وتعتقها بسبب لونها الأحمر.

---

(١٩٦) ديوانه ص ٣٢١.

(١٩٧) الإيضاح للخطيب القزويني ص ٤٨٨ سابق.

وتشبيهان فيهما نظرهما قوله:

تـــدمي قـــدام الإبريـــق مـــن دمهـــا كأنـــــه راعـــــف ومـــــا رعفـــــا

وقوله:

أراق فيهـــــا المـــــزاج فاشـــــتعلت كمثـــــل نار أطعمتهـــــا ســـــعفا

أما التشبيه الأول: "تدمي فدام الإبريق" فهو مرتبط بقوله "فاشرب عقارا كأنها قبس" والفدام: ما يوضع على فم الإبريق ليصفى ما فيه(١٩٨) فقد شبه المصفاة التي على فم الإبريق وتلونها باللون الأحمر واصطباغها به لامتزاجها بالخمر بالراعف وهو الذي سال دمه من أنفه، وهو يريد أن يخبر عن أصالة الخمر وتعتقها حتى اكتست لون الحمرة الشديدة لكن صورة الراعف لا تساعد على ذلك فالرعاف لا يكون إلا من مرض أو ما شابهه كما أنها صورة مقززة يستاء سامعها قبل رائيها ولم تصلح الصورة باستدراكه بقوله "وما رعفا".

وهذه الصورة ليست مثل صورة المتنبي في سيف الدولة:(١٩٩)

نثـــــرتهم فـــــوق الأحيـــــدب نثـــــرة كمـــــا نثـــــرت فـــــوق العـــــروس الـــــدراهم

فقد شبه تناثر جثث القتلى بنثر الدراهم فوق العروس، والصورة الأولى صورة قتل ودم ورعب والثانية صورة فرح وعروس ودراهم، ولكن سياق القصيدة يساعد على ذلك ويمهد له، فسيف الدولة مسرور بالنصر وضاح الوجه، باسم الثغر في قوله:

تمـــــر بـــــك الأبطـــــال كلمـــــى هزيمـــــة ووجهـــــك وضـــــاح وثغـــــرك باســـــم

فجثث القتلى من أهم ما يسره، وهي لا تقل سعادة عنده عن صورة العروس والدراهم، أما مقطوعة ابن المعتز فليس فيها ما يساعد على هذا التشبيه.

وتشبيه ابن المعتز لعله أخذه من أبي نواس في قوله:(٢٠٠)

فســـــال منهـــــا مثـــــل الرعـــــاف دم يشـــــفى بـــــه مـــــن ســـــقامه الصـــــعق

وبيت أبي نواس أكثر مدحا للخمر، فقد شبه الخمر بالدم الذي يسيل من الراعف وأتبعه بهذه المبالغة المحمودة: "يشفى من سقامه الصعق".

أما ابن المعتز فقد أحس أن تشبيه الخمر بالرعاف فيه ما يشين، وأنه بضر ولا يسر، فاستدرك بقوله: "وما رعفا".

---

(١٩٨) اللسان مادة قدم ٥/ ٣٣٦٥.

(١٩٩) ديوان المتنبي ٣/ ٤١٠ بشرح العكبري ضبط د/كمال طالب ط أولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م دار الكتب العلمية بيروت.

(٢٠٠) ديوان أبي نواس ص ٣٦٨ سابق.

وبدهي أن أبا نواس وابن المعتز لا يتوافقان على نتوء فني، وجفوة في التشبيه، مما دعاني أن أجيل الطرف، وأطيل النظر في هذا التشبيه، ولعلهما نظرا إلى اللون فقط دونما نظر إلى صورة الراعف، فالخمر كلما اشتدت حمرتها زادت أصالتها، وتعققها، فلعلهما نظرا إلى هذه الزاوية دونما نظر إلى منظر الرعاف وما يثيره من مشاعر وأحاسيس، والتشبيه تكفي فيه المماثلة من بعض الوجوه كما في قوله تعالى: "**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آَدَمَ**. . "[٢٠١] إذ يعدونه من تشبيه الغريب بالأغرب، لأن فاقد الأبوين أغرب من فاقد الأب، فكان أشد خرقا للعادة من الموجود من غير أب وأقطع للخصم، وأحسم لمادة شبهته، والجامع كون كل منهما من غير أب، على أن التشبيه تكفي فيه المماثلة من بعض الوجوه. (٢٠٢)

أما التشبيه الثاني:

أراق فيها المزاج فاشتعلت كمثل نار أطعمتها سعفا

فهو يريد أن يشبه الخمر بالنار في لونها الأحمر الذي يدل على صفاء وأصالة الخمر، ولكن صورة النار التي "أطعمتها سعفا لا تدل على ذلك؛ لأنه يعلوها الدخان والغبار، ويتطاير منها الشرر الأسود، ولا ترى نارا حمراء صافية خالصة كما يريدها ابن المعتز وقد أحسن امرؤ القيس حين شبه سنان السيف بلهب لم يتصل بدخان حتى يحتفظ له بالبريق واللمعان في قوله:(٢٠٣)

جمعت رديني كأن سنانه سنا لهب لم يتصل بدخان

وابن المعتز فعل مثل هذا في قوله:(٢٠٤)

وحمل كفه كأسا تلظى بنار لا تقنع بالدخان
فلما صب فيها الماء ثارت كما ثار الشجاع إلى الجبان
فخلت الكأس مركز إقحوان وتربته سحيق الزعفران

ففي البيت الأول شبه ما في الكأس من الخمر بنار تلظى وقيدها بـ "تلظى" ليشير إلى أنها ملتهبة متوهجة صافية، لا أثر للدخان فيها، وقد نص على ذلك بقوله "بنار لا تقنع بالدخان" وهو في طول ديوانه وعرضه غالبا ما يقيد النار بوصف يدل على توقدها وصفائها كقوله:(٢٠٥)

ألا فاسقنيها قد مشى الصبح في الدجى عقارا كلون النار حمراء قرقفا

---

(٢٠١) سورة آل عمران ٥٩.

(٢٠٢) حاشية الجمل على تفسير الجلالين ١/ ٢٨١- الحلبي بدون.

(٢٠٣) ديوان امرئ القيس ص ١٧٧، دار صادر بيروت- بدون.

(٢٠٤) ديوان ابن المعتز ص ٤٤١.

(٢٠٥) ديوانه ص ٣٢٢.

وقوله:[٢٠٦]

كأن بكأسها نارا تلظى ولولا الماء كان لها حريق

وقوله:[٢٠٧]

ومشمولة قد طال بالقفص حبسها حكت نار إبراهيم في اللون والبرد

ففي البيت الأول يقيد النار بأنها: "حمراء قرقفا" وفي الثاني يقيدها بقيدين يقوي كل منهما الآخر ويؤكده: "نارا تلظى" ولولا الماء كان لها حريق وفي الثالث بـ "نار إبراهيم في اللون والبرد" وكلها قيود جاء بها ليدل على صفاء الخمر وأصالتها.

وقد عابوا عليه المقابلة بين احمرار الورد في جوانبه، وبين احمرار الخدود في قوله:[٢٠٨]

أتاك الورد محبوبا مصونا كمعشوق تكنفه الصدود

كأن بوجهه لما توافت نجوم في مطالعها سعود

بياض في جوانبه احمرار كما أحمرت من الخجل الخدود

ففي البيت الأول يشبه الورد بمعشوق تمنع وصد حياء وخجلا، وفي الثاني يشبه وجهه وهو على هذه الحالة ويراها أحسن حالاته، وأنضر تقسيماته وأجمل أوقاته "بنجوم في مطالعها سعود" وهي نجوم الصيف ومنازل القمر، تطلع في آخر الربيع، وقد سكنت رياح الشتاء، ولم يأت سلطان رياح الصيف، فأحسن ما تكون الشمس والقمر والنجوم في أيامها لأنك لا ترى فيها غبرة". [٢٠٩]

وخيال ابن المعتز الرائق لاءم بين الطرفين فتجوز وتسامح حتى رأى وجه المعشوق الذي تكنفه الصدود، يشبه هدوء الجو واستقراره وصفائه واعتدال هوائه واعتلال نسيمه، ثم يشبه بياض الورد مع احمرار جوانبه، بخدود احمرت من الخجل.

ويعيب ابن رشيق[٢١٠] على ابن المعتز هذه المقابلة بين احمرار الورد في جوانبه وبين احمرار الخدود، "لأن الخدود متوسطة وليست جوانب فهذه من سوء المقابلة، وإن عدة الجرحاني غلطا في التشبيه فقال[٢١١]: "والخجل إنما يحمر وجنتاه، فأما منبت الأصداغ ومحط العذار فقليلا ما يحمران،

---

(٢٠٦) ديوانه ص ٣٤٣.

(٢٠٧) ديوانه ص ١٧٦.

(٢٠٨) ديوانه ص ١٨٨.

(٢٠٩) اللسان مادة سعد ٣/ ٢٠١٢.

(٢١٠) العمدة لابن رشيق ٢/ ١٨.

(٢١١) انظر الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ص ١٨٨ سابق، وابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد، والبيان للدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجي ص ٢٤٠ سابق.

فهذا التمييز مسلم له. . . ولو اتفق له أن يقول: حمرة في جوانبها بياض، لكان قد طبق المفصل، وأصاب الغرض، ووافق شبه الخجل، لكن أراد أن البياض والحمرة يجتمعان فجعل الاحمرار في جوانب البياض فراغ عن موقع التشبيه "وقد اعتذر له الإمام عبد القاهر فقال: "إلا أنه لعله وجد الأمر كذلك في الورد فشبه على طريق العكس فقال: هذا البياض حوله الحمرة ههنا كالحمرة حولها البياض هناك". (٢١٢)

ويشبه مشي العجوز المتصابية بضفائر ليف في هدية حجاج فيقول:(٢١٣)

عجوز تصابى وهي بكر بزعمها ومذ ألف عام وجي خدها الواجي

ترى مشيها تحت القناع كأنه ضفائر ليف في هدية حجاج

فهو يشبه مشي العجوز تحت القناع بضفائر ليف في هدية حجاج، ولا تجد شبها يجمع بين الطرفين، ولا وجه لالتئامهما، فما وجه الشبه بين مشي العجوز المتصابية وضفائر الليف في هدية الحجاج، ولو أنه شبه شعرها بضفائر ليف لكان مقبولا وله وجه من الظرف، ثم ما معنى قوله: "تحت القناع" وقد عقب محقق الديوان بقوله: "هكذا في الأصل ولا يوافق معنى البيت ولعله محرف وما فائدة تقييد الهدية بالحجاج إن التشبيه كله ساقط وهو من سقطات ابن المعتز ونتوءاته الفنية الواضحة، ولعل سوء النسخ كان سببا في هذا القلق والإضراب في المعنى. وفي قوله:(٢١٤)

وسلفها العروش فحملته عناقيدا كأشلاء الجوار

فهو يشبه عناقيد العنب التي تم نضجها وكمل استواؤها، بأشلاء الجواري، فهل يقصد أن حبات العنب التي تم نضجها واستوت تشبه القطع المتناثرة من أجزاء الجواري المتقطعة، وقصده اللون الأحمر، وكأنه أصبح جزارا يحسن تقطيع اللحم وتجهيزه، وليس شاعرا يحيا بالمشاعر، ويعيش للأحاسيس الدافئة النابضة، وقد عقب محقق الديوان على ذلك بقوله: "عناقيدا كالأشلاء الجوار" لم نجد معنى لجوار موافقا ولعلها محرفة(٢١٥).

وهكذا نجد ابن المعتز مع مقدرته الفنية، وحذقه وشهادة النقاد له بذلك يفتر ويقصر، وينبو طبعه، وتكل قريحته، وتتعد مؤاخذاته، وهذا يعرض للفحول من الشعراء فما بالك بغيرهم؟!!.

---

(٢١٢) أسرار البلاغة ص ١٩٧.

(٢١٣) ديوانه ص ١٣١.

(٢١٤) ديوانه ص ٢٣١.

(٢١٥) ديوانه ص ٣١ هامش ١.

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد. . .

فهذه دراسة عن الدلالات النفسية للألوان في تشبيهات ابن المعتز في الخمر والغزل، عشت معها طويلا، تأملت أساليبها، وتدبرت في تراكيبها ووقفت أمام دلالات الألوان في شعر ابن المعتز، وكيف كان عنصرا يضاف إلى البناء التركيبي للأسلوب، وقد خرجت من هذه الدراسة ببعض النتائج والتوصيات منها:

- **أولا:** أن شعر ابن المعتز لم يأخذ حظه من الدراسة والتحليل البلاغي، مع أنه رجل بلاغي، وكتابه "البديع" من بين الكتب الأولى في هذا الفن.
- **ثانيا:** ديوان ابن المعتز يحتاج إلى الدراسة والتحقيق والشرح، وفيه كثير من الأخطاء المطبعية، التي تعمي الأسلوب، وتجعله غير واضح المعنى، أو محدد المراد، ومحقق ديوانه الأستاذ/ كرم البستاني، قدم للديوان، وذكر بعض الكلمات الغريبة، ويبقى الديوان في حاجة لدراسات قوية، وتحقيقات جادة.
- **ثالثا:** ابن المعتز مشهور بتشبيهاته الحسية البصرية، حتى ليندر أن تجد له تشبيها معقولا، وهذه قضية تستحق البحث للوقوف على أسرار ذلك.
- **رابعا:** ابن المعتز يعمل خياله، ويشحذ قريحته، ويخرج من التشبيهات ما تبهر العقول، وتستحوذ على الأفئدة بحيث تجعل مثالا يحتذى، ونموذجا متفردا وقد شهد له بذلك الشعراء والنقاد.
- **خامسا:** الألوان اكتظت بها أشعار ابن المعتز لاسيما في الخمر والغزل، وكان لها من الدلالات والرمزيات ما كان يخدم السياق ويضيف إليه.
- **سادسا:** الخمر والغزل استغرقا ديوان ابن المعتز إلا قليلا، مما حدا بالبحث أن يجعل هذا الإغرام من قبيل الولع الفني، وليس إخبارا عن واقع يعيشه.

المصادر والمراجع

١. ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ط ثانية ١٩٥٨م- دار العهد الجديد.

٢. الإتقان في علوم القرآن للسيوطي تحقيق/ أحمد بن علي- دار الحديث القاهرة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٣. الإيضاح للخطيب القزويني تحقيق د/ خفاجي ط ثالثة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، دار الكتاب اللبناني.

٤. الرسم بالألوان في القرآن د/ أحمد رأفت علي عبد المنعم- دار الجميل بدون.

٥. العمدة لابن رشيق تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط خامسة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، دار الجيل.

٦. اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي للباحثة أمل محمد عبد القادر أبو عون رسالة ماجستير من قسم اللغة العربية- جامعة النجاح الوطنية- نابلس فلسطين ٢٠٠٣م.

٧. المعجم الوجيز- مجمع اللغة العربية- طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٨. الوساطة بين المتنبي وخصومه لعلي بن عبد العزيز الجرجاني تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي- الحلبي- بدون.

٩. إحياء علوم الدين للإمام الغزالي تحقيق الشحات الطحان وعبد الله المنشاوي ط أولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، مكتبة الإيمان المنصورة.

١٠. أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمد شاكر ط أولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، مطبعة المدني- القاهرة.

١١. تحرير التحبير لابن أبي الأصبع تحقيق د/ حفني محمد شرف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

١٢. تفسير ابن كثير- بدون.

١٣. تفسير الزمخشري. دار الفكر- بدون.

١٤. تفسير القرطبي تحقيق إبراهيم محمد الجمل- دار القلم للتراث. بدون.

١٥. حاشية الجمل على تفسير الجلالين- مطبعة الحلبي. بدون.

١٦. حاشية الدسوقي على شرح السعد- شروح.

١٧. حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي- المكتبة الإسلامية تركيا.

١٨. دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني تعليق/ محمود شاكر ط ثانية ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م مكتبة الخانجي- القاهرة.

١٩. ديوان البحتري تحقيق حسن كامل الصيرفي ط ثانية- دار المعارف من دون.

٢٠. ديوان أمرئ القيس دار صادر بيروت- بدون.

٢١. ديوان ابن المعتز- دار صادر بيروت- بدون.

٢٢. ديوان أبي نواس شرح الأستاذ علي فاعور ط أولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م دار الكتب العلمية- بيروت.
٢٣. ديوان الخطيئة شرح أبي سعد السكري ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م بيروت.
٢٤. ديوان طرفة بن العيد تحقيق فوزي عطوي- بيروت ١٩٨٠م.
٢٥. ديوان المتنبي بشرح العكبري د/كمال طالب ط أولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية- بيروت.
٢٦. شرح المعلقات السبع للزوزني تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار الطلائع- بدون.
- شرح المعلقات السبع للزوزني ط أولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م- دار الكتب العلمية- بيروت.
٢٧. شروح التلخيص دار الكتب العلمية لبنان- بدون.
٢٨. عمدة القارئ على شرح صحيح البخاري ضبط عبد الله محمود محمد عمر دار الكتب العلمية- بيروت- ط أولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
٢٩. فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه للدكتور محمد صالح الشنطي ط أولى ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م الرياض.
٣٠. لسان العرب لابن منظور- دار المعارف.
٣١. موسوعة أساطير العرب عند الجاهليين ودلالاتها د/ محمد عجينة ط أولى ١٩٨٤م، دار الفارابي- بيروت.